شمال
يمين

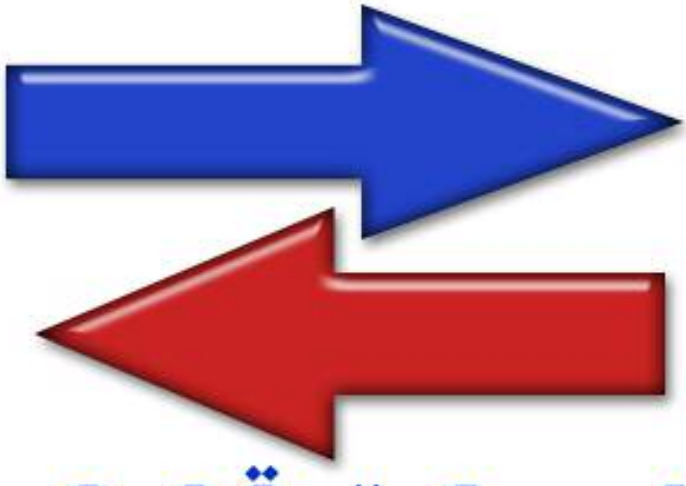

مجموعة قصصية

سمير الغيل

© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة ل
www.nashiri.net
© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب

نشر إلكترونيا في فبراير 2004

المحتويات

الإهداء
شارل ديدييه
بروجي للتحية

القسم الأول : بعض ما جرى في الأساس
قايـــش وســـــط
يـــوم الرقـــــص
الظـــــــــــل
التـــزحيـــــــف
ياقـات حمـــــراء
أربعة شرائط سوداء
الهـــــــــــدف

القسم الثاني : نظرة على حكايات الأخصائي
البنـــــــات
حرامـــي الحلة
خنـــافـــــس
شربـــة مـــــاء
مـــــــــرآة
زيـــــــارة
شمال . . يمين

القسم الثالث : تأملات شاردة عن الجبهة
فـــرد يمـــــام
شَعْـــــــــرَة
عربـون محـــبة
الأعمال بالنيا ت
الدفرســـــوار
سـرابيـــــــوم
صيـد العصـــاري

السيرة الذاتية للكاتب

إهداء

إلى سمير عبد الفتاح
محمـود المنسي
عصـــام الغازي
معصـوم مرزوق
د . السـيد نـجـم
محمـود الورداني

بالتأكيد . . زحّفوا الرمال في السادسة صباحاً ، مثلي .

وإلى عبد الله خـيـــرت
د . عبد القادر القط
د . ألـفـت الروبـــي
شمـس الدين موسى
سيـد عبـد الخـــالق

رحلوا قبل أن يقرأوا هذه الحكايات ،

سمير الفيل

شارل ديدييه

" لا يوجد في أرض الله الواسعة شعب أسلس طبعاً من أبناء الفراعنة هؤلاء .
فالمصري يحتفظ بدماثة طبعه تحت ثيابه العسكرية ، وتظهر حضارته المتأصلة إدا ما قورن بالعسكري العثماني ، ذلك الجلف الجافي ، الذي يفاجئك هو وضباطه بفظاظتهم ، على حين أن المصري يحتفظ ، مجنداً ، بهدوء سريرته ، وكرم طبعه ، وسماحة سجاياه "

شارل ديدييه – ليالي القاهرة
ط – باريس – 1860 م

[مصدر : سندباد المصري / حسين فوزي]

بروجي للتحية

في خريف سنة 1974 ، استدعى فرز " الزقازيق " فتى نحيفاً كزعزوعة القصب ، أسمر ، ضعيف البنية ، بنظارة طبية لا يشوف بدونها ، إلى الخدمة العسكرية .

حلقوا له رأس الشعر نمرة واحد ، ثم صرفوا له مهمات العسكري المستجد ، بعد أن عرضوه على السرية الطبية ، فجسوه ، وقلبّوا فيه ، ورأوا أنه " صاغ سليم " .
ثم أرسلوه إلى تجنيد " الزيتون " ليتأكد الأمر ، حيث أن وجود نظارة أقلقت الرائد الأصلع ، الذي رفع الأمر عن كاهله ، وتكرر : الجس ، والتقليب ، والتذنيب !!
وجد الفتى نفسه رقماً مدقوقاً على رقعة صاج ، لا بد أن يحفظه ، انخرط في طوابير التمام والتدريب حتى أتقن كل شيء .
ولم تمض سوى أسابيع قلائل حتى وجد نفسه في كتيبة مقاتلة ، عليها حراسة الوطن ، وفوق ذلك تزحيف الرمال كل صباح بالمشمع ، مع نوبات الكينجي ، وطوابير التكدير بالملابس الداخلية .
مع أولاد ناس من بحري وقبلي ، أدرك أن الدنيا واسعة وعميقة كالمحيط ، لكنها في الوقت نفسه ضيقة كثقب إبرة . عرف أن البشر فيهم الصالح والطالح . منهم معادن نادرة كالتبر الثمين ، ومنهم الفالصو الذي لا يساوي مليماً .
في خريف سنة 2003 ، انكشفت له رؤيا : أن الصول عبد الخالق يضرب بروجي ، ويستدعيه كي يحكي عن أيام الجندية الأولى .
حكايات ومواعظ لعساكر غلابة كانوا يجادلون الزمن الصعب والخدمة الإجبارية بسلامة طوية وعشق أكيد للحياة .
إلى هؤلاء الجنود الذي مضى على خدمتهم أكثر من 29 سنة أهدي هذه الحكايات ، وإلى كل العساكر المستجدين . .
اضحكوا من قلوبكم على أيامنا الصعبة ، ففيها – أيضاً . . صفاء نادر ، وخشونة بكر ، وشيء من حكمة الزمن !

القسم الأول

القسم الأول:

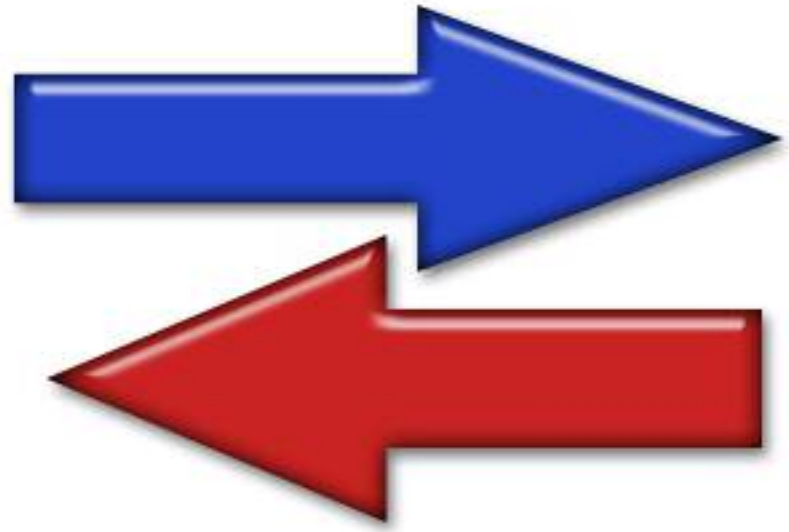

بعض ما جرى في الأساس

قايــش وســـط

العسكري صبري الأرناؤطي استلم أفروله الكاكي الجديد ، وفردتي البيادة ، وخرج من الصف الطويل الذي أكلته الشمس ، كأنه في يوم عيد . ولم لا وهو الفلاح القراري الذي ما حط على جسده إلا جلباب الصيف ، وكسوة الشتاء ؟

يجعل خالته فاطمة تحيكها على ماكينة الخياطة كيفما اتفق ، ثم ينقدها جزءاً من أجرها ، والباقي يأتي وقت الفرج ، الذي لا يزور قريتهم أبداً .

هو الآن جندي عادة ، يحفظ رقمه العسكري عن ظهر قلب ، وحين يصرخ فيه الشاويش " صفا " يضرب قدمه اليسرى في الأرض ، كأنها بريمة يدقها كي تخرج بترولاً ، والبترول هو الجاز ؛ عرف ذلك بعد أن سأل صاحبه عبد المتجلي وقت الراحة .

اليوم سيكون جندياً بحق وحقيق ، وحين ينزل أجازته الشهرية ، سيسير في أزقة القرية بمشية عسكرية تهز أشجار الجوافة والليمون على الجانبين .

أحلى ما في الخدمة هو ذلك الزهو الذي لا شك أنه قد شعر به وهو ينطق اسمه مضيفاً إليه الرقم الصعب الذي حفظه بمشقة ، والرقم الكودي للكتيبة .

بعد ذلك يكون كل شيء سهلاً ، والتكرار يعلم الشطار ، وهو شاطر ، أروب ، يعرف كيف يبدل الخطوة ، بضرب مقدم القدم اليمنى في كعب اليسرى عند أقل خطأ ، ليعود لمشيته المنتظمة : واحد . . اتنين . . واحد . . اتنين .

وقد حاول فترة الاستراحة أن يكررها ، حتى أتقنها ، لكن أفروله العسكري كان قديماً ، أحضره من كشك خشبي أسفل كوبري المشاة الملاصق لمحطة السكة الحديد .

اليوم يمكنه أن يرتدي أفرولاً جديداً ، بشوكته ، وهي اللحظة التي عاش ينتظرها ، خاصة وأن الأجازة قد أوشكت على الاقتراب .

خرج من الصف مسرعاً ، وفي الخيمة المنصوبة في صحراء المعادي حيث تدريب " أساس 2 " ، مرق إلى الداخل، كاد يدق عنقه حين اصطدمت ساقه بالوتد الحديدي اللعين ، زفر في تعب ، وهو يلهث . دخل حيث فرد مشمعه الميري بلونه البني الذي تحول مع نوبات التزحيف إلى لون التراب الأخرص .

ارتدى السترة ، راح يزررها بيد مرتجفة ، كان يخب فيها كأنها ابتلعته . سرى عن نفسه أن البنطلون سيعدل الأمور : سيعدلها ، لا شك في ذلك .

خلع البيادة بصعوبة بالغة ، كان يربطها ثمانيات وسبعات حسب الأوامر المشددة ، رفع قدمه اليمنى ، أدخل رجل البنطلون ، استند بكفه على عامود الخيمة ، فلسعته سخونته فقد كانت الظهيرة . وشمس المعادي تبخ الصهد ولا ترحم . رفع قدمه اليسرى ، وأدخل الرجل الأخرى . بكل ما أوتي من قوة خطف البنطلون خطفاً لأعلى ، وأدخل السترة ، وجرى إلى المرآة المهتزة بعنف على خلفية مدخل الخيمة . شعر بوسامته .

عســـــكري بجـــــد . ولـــــد مجـــــدع شـــــارب مـــــن بـــــز أمه . صاح فيمن حوله : إيه رأيكم ؟
كان كل من استلم مهامه في شغل شاغل عنه ، حتى أن أحداً لم يرد على سؤاله . بالكاد سمع همهمة : تمام .
لكن البنطلون انسلت ، وشعر بالخزي والكلسون فيه قطع كبير يكاد يبين لحمه .
رفع البنطلون ثانية ، وضم الحجر بما قيمته قبضتين ونصف . لا توجد معه مهمات خياطة ، لا إبرة ولا خيط . هرش رأسه ، وأدخل رأسه في مخلته يبحث عن حبل التيل المبروم ، لقد أدخره ليوم أسود .
وها هو اليوم الأسود قد أتى مسرعاً ، وشمس المعادي لا ترحم أبداً ، قاسية مثل قلوب الصولات ، غليظة كأوامر الباشجاويشية ، وهو دائماً ما يدير في عقله العبارة الأبدية التي حُفرت في عقله كأنها موعظة لا تقدر بثمن : " الجيش بيقولك تصرف " .
أمسك بالحبل فرحاً ، وقد أدرك أنه قد عثر أخيراً على الحل الأمثل . مرر الحبل من اليمين إلى اليسار أعلى "البتلتة" شد بكل ما أوتي من عزم . استقر البنطلون على جسده الهزيل المضروب بالبلهارسيا في إحكام .
كان من حوله العساكر المستجدين يجرِّبون أفرولاتهم مثله ، لكن أغلبهم ارتدى قميصاً وبنطلوناً من قبل . شعر أنه يطوي تلك الفترة من حياته . وداعاً للجلباب الذي ربطه بالقرية والغيط والساقية .
من اليوم هو الجندي المجند صبري الأرناؤطي على سن ورمح ، وليضرب من يعترض رأسه في أقرب حائط . سيختفي من حياته ذلك الظلم الذي عاناه في أيام الفرز الأولى .
كان الأومباشى دائماً ما يختار أصحاب الجلاليب لجمع الأوراق المهملة من الساحة الواسعة . الآن هو مثلهم . فقط يختلف اختلافاً طفيفاً لا يكاد يبين بالمسحة الصفراء التي تسري تحت الجلد ولا تظهر إلا لمن يدقق .
سمع صفارة طويلة ، أدرك أن وقت الجمع في طوابير الاصطفاف قد بدأ . أدخل قدميه في البيادة بسرعة ، وأعاد ربط سبعات وثمانيات ، التي أتقنها تماماً .
وقف أول الصف شامخاً برأسه ، والطاقية الكاكية في وضعها السليم . فقط الحبل مشدود شداً يؤلمه . مر الأومباشى متفقداً الصفوف . حملق في زي صبري عبد العظيم الأرناؤطي ، صرخ فيه أن يتقدم خطوتين : أيه اللي انت عاملـه يا عسكري ؟ أنت جاموسة رابطينك بسلبة ؟
وهاج أكثر : إجري بسرعة هات قايش الوسط .
اختلط الأمر على صبري ، هز رأسه بعدم فهم حقيقي ، خرجت الكلمات بصعوبة : قايش . . أيه ؟
رد الأومباشى : قايش الوسط . ولا تكونش فاكر صارفينه لك علشان تتحزم به ، وترقص ؟
ضج الطابور بالضحك ، وهو ما لم يكن مسموحاً به . وقد أمر الأومباشي بإحضار كل عسكري للمخلة ، ورفعها لأعلى والجري بها في عز نقحة الشمس على شرف العسكري صبري الذي لا يعرف قايش الوسط .

واستسلم العساكر للأوامر ، وبدأ طابور الذنب والشمس كانت ما تزال تشوي الأجساد ، وتؤكد لصبري أن ربه لم يرض عنه بعد ، ربما لذنب قديم ، فعله ونساه .

يــوم الـرقـــص

العسكري فريد الأهبل فعلها . ظل يخِّزن في صدره كالجمل ، ثم نط في بطن الأومباشي عويضة ، لوى زراعه ، أوقعه أرضاً ، وذلك لأنه ظل يسخر منه على مدار أسبوع كامل ، منادياً إياه : يا عسكري يا نمرة !

والعسكري النمرة جثم على صدر عويضة ، ولكمه في صدغيه لكمات متوالية ، وغشي الموقع سكينة ، وصمت لم نعتده . وسرعان ما تخلص الأومباشي من وقع المفاجأة ، وبادل فريد الضرب ، وتأكدنا أنه – أي الأهبل – يترك له مساحة مناسبة للطم وانشاب الأظافر في رقبته حتى صارت خطوطاً حمراء متعرجة ، فلما تيقن أن العلامات الحمراء لن تُمحى بسهولة عاود لكماته ، ثم فر واقفاً ، وركله وهو يصيح : ابن كلب .

بتثاقل قام الأومباشي ونفض ملابسه ، وراح يعدل من وضع أفرولـه ، وسرعان ما رأينا سرسوب الدم يتسلل من أنفه تجاه الشفتين .

أسرع عسكري سمين بقذف منديله الكاكي ، تلقفه ، ومسح الدم الأحمر القاني ، نظر بكل غل : سأريك .

تحلقنا حول المتخاصمين المتضاربين ، وقلنا إن الصلح خير ، وعفى الله عما سلف .

أشار الأومباشي بحسم : كل هؤلاء سيشهدون .

قلنا جميعاً : لم نر شيئاً .

وقال لطفي فرو بخبث شديد : سأشهد بما رأيت . أنت بدأت بضربه .

ضرب الأومباشي عويضة صدره بيده : أنا ؟!

نظر إليه لطفي فرو ، وضيق ما بين عينيه ، وهو القصير المكير ، وصاحب عاهة ، وكل ذي عاهة جبار ، أما في الجيش فكل ذي عاهة أمير الجبابرة . لذلك كان يسيراً عليه أن يتجه لسترة العسكري فريد ، ويمزقها أمامنا ، فتتطاير الأزرار . هنا هتف بصوت عالي : تمزق ملا بسه ، وتضربه ، وتريد منه السكوت .

قلنا جميعاً في تشف – ونحن الذين شعبنا سخرية من هذا الأومباشي اللعين – وقد علا صوتنا أكثر : سنشهد أنك مزقت ملابسه .

عندئذ تقدم ملاك حنا ، ومسح بيده العارية خيط الدم ، وهتف بالأومباشي : أنت زودتها وكما تدين تدان . كلنا يد واحدة . يا نمرة !

نظر الأومباشي إلى السحب الرمادية المتكاسلة التي كانت تمر في سماء صحراء المعادي ، وكانت تضفي على المكان حزناً وغموضاً لا نهاية له ، مسح المكان : الكلاب البعيدة التي لا تكف عن النباح ، وأشجار الصبار القزمية ، وأعمدة الحديد التي تحمل الأسلاك الشائكة . قال في صوت مهزوم : سأبلغ مكتباً ، وسأحبسكم جميعاً .

كاد ملاك يفتك به ، وكانت نوبة الراحة على وشك الانتهاء . زغده في جنبه : وشرف أمي أفضحك . يا أبو علقة .

ضج الموقع بالضحك ، والعسكري فريد أمسك بعامود تنشين طويل وراح يرقص في دائرة هو مركزها ، وقد انفتحت السترة حتى بطنه ، وأطلت فانلته الداخلية التي طالها التمزيق وهو يغني :

" يا حلو أنت ، يا بُغاشة . .
تعالى . شوف الأومباشى "

وحنا بقبضته التي تشبه المطرقة ، يضرب على صدره المنتفخ ، وترن الطبلة البشرية ، وما لبث أن أجبر الأومباشى على الرقص معه قسراً .

في البداية ثبت قدميه في الأرض الرملية ، لكنه بعد دقائق تحرك ، ووجهه الممتقع تعلوه غبرة . الجميع يرد على فريد الأهبل " يا باشا " إلاه .

وعلى صوت الطبل والدق ، والتصفيق المتواصل جاء أفراد من فصائل أخرى ، كان أغلبهم في غُلب لا يوصف بسبب مفارقة الأهل والخلان ، فدخلوا الدائرة ، ورقصوا . لم ير أحد من هؤلاء العساكر بداية اللطم والضرب ، وخيط الدم . فقط انخرطوا في الرقص والغناء .

واتسعت الدائرة ، حتى أصحاب الرزانة والوقار شاركوا في التوقيع بأكفهم الغليظة . بشق الأنفس عثر العسكري يحيى على قطعة حرير حمراء ، لعلها في الأصل إيشارب لبنت يحبها ، وحزم الأومباشى الذي لم يجد مفراً من الاستسلام لغواية الرقص ، وتغيرت النغمة ، بإيقاع محموم .

" يا حلو أنت ، يا بُغاشة . .
تعالى ، بوس الأومباشى "

وتحول الوجه الممتقع إلى صفاء مدهش ، والأومباشى يرقص هذه المرة بجد ، ورمضان يراقصه في ثنائية لا توصف من الانسجام والمودة .

في تلك الأثناء دخل العسكري لطفي فرو ، وأحضر سترة جديدة ، ألبسها رمضان بصعوبة وهو يرقص ، بعد أن انتزع سترته الممزقة .

وعلى حين غرة ، دوت صفارة الجمع ، وتوقف العساكر عن الرقص لهنيهة ، ثم استعدوا للانسحاب بهدوء . غير أن ملاك حنا المفتري ، صاحب القبضة مثل المطرقة صرخ فينا : ساعة الحظ لا تعوض . هيا نكمل .

واستمر الرقص ساخناً ، وكانت البيادات تدبدب في انتظام غريب . لم نشعر بالرائد سلامة عسل إلا وهو فوق رؤوسنا يشخط فينا بصوت هادر : كله حبس خميس وجمعة . . يا نمر !!

قالها وذهب ، ولم يتوقف الرقص ، والوحيد الذي خُصم من راتبه يومان كان الأومباشى عويضة . وقد جمعنا له من نقودنا القليلة ضعف ما خُصم . فرد المبلغ بحسم ، وقال لنا بعد الواقعة بأسبوعين : لقد كسبت أكثر . ولم نفهم !!

الظـــــــل

كل شيء في الدنيا له ظل . وللظل تحولات لا تخطئ العين رؤيتها . الظل ملازم للأجساد ، المباني ، الأشجار ، الحيوانات الأليفة والنافرة . .

لا بد من وجود شمس كي يتكون الظل ، ربما قال قائل : إن التيار الكهربائي حين يسري في أسلاك المصابيح يتولد الضوء ، ويوجد الظل . هذا ما نعرفه ، لكننا نتحدث عن الظل الأصلي ، الطبيعي ، الذي يتولد من النور الرباني ، سواء مع بزوغ شمس ، أو إطلالة قمر .

كل هذه الأشياء يعرفها عساكر الأساس ،وهم ينزوون في الأركان ، تحت ظلال الجدران البعيدة للكانتين ، أو ظلال الخيام حيث يمتنع بتاتاً على الأفراد دخول حرم الخيام إلا في أوقات الراحة ، أما فترة الطوابير الممتدة من السادسة صباحاً ، وحتى الثانية ظهراً ، فمن المستحيل الدخول إلا للمرضى ومن يحملون " أرانيك " عيادة ، وفيها عبارة صرحة بالقلم الأحمر " معافاة من الخدمة والطوابير " ، وهو أمر نادر الحدوث .

فحتى هؤلاء يتم مطاردتهم ، وأسرهم بكل معنى الكلمة ، حيث يؤخذون إلى المطبخ الميري لتقشير البطاطس ، وتقطيع البصل ، وعصر الطماطم ، وحمل " الأروانات " العملاقة ، وهي مسائل مهلكة للبدن والأعصاب .

الظل هو غاية كل مجند ، خاصة في أشهر الصيف العنيدة ، بالتحديد يونيو ، ويوليو ، وأغسطس . وهو الثلاثي الذي يكرهه كل عسكري من قلبه . فالشمس في صحراء المعادي تهبط لتلامس بشظاياها رؤوس الأفراد . وحتى الكلاب في عز الصهد تختفي ولا تظهر إلا في وقت معلوم– بين الثانية والنصف والثالثة ظهراً– حيث يقترب موعد توزيع التعيين . فتظفر بقطع عظام ، وبقايا جراية ، وقليل من اليمك ، إن كانت هناك وشائج صداقة قوية بينها وبين فرد في عقله خلل، بحيث يتنازل عن جزء من نصيبه ، وقوته الضروري لكلب ضال ، في الغالب أجرب ، هزيل ، ضامر الجرم ، وهذا ما كان من الأمر العسكري " توفيق أبو شعرة " .

الظل يخشى افتضاح أمره ، ففي الثانية عشر تماماً يقصر ويتلاشى فلا تعثر على أثر له ، قبل أن يعود ، فيمتد باتجاه ثكنات القائد ، والضباط .

هؤلاء لا يشغلهم الظل في شيء ، فلديهم أسلاك ممدودة ، تتصل بمراوح بعضها معلق في الأسقف ، وبعضها على حامل .

وأنت إن أحببت أن تجد ظلاً مناسباً فعليك بالدفع ، حيث يسمح لك عسكري الكانتين أن تجلس إلى جوار الجدار الخشبي السميك مقابل سيجارة أو سيجارتين ، وفي أوقات القحط الرهيب يكتفي بنفسين ودعوة مفادها العودة سالماً غانماً لأهلك .

وفي الظل إغواء للجسد بالراحة ، وتخليص للروح المتعبة من أوجاعها ، ونحن هنا نتحدث عن شمس الصيف تحديداً ، وهو الموعد المناسب دائماً لتجنيد دفعات جديدة من العادة والمؤهلات على السواء .

وبقدر تنازلك عن جزء من الظل يخصك يكون مقدار أصالتك ومتانة صداقتك لأي زميل ، وحين اكتشفنا بعد أسبوع كامل من البحث المضني عن ظل شجرة كافور وحيدة هائلة تقع في الركن الأيسر لمطبخ المعسكر ، رحنا نتسلل إليها ونحتلها ، دون أن نجسر لحظة على البوح بسرنا الدفين .

فإذا سألنا زميل – نحن المكتشفين لظل الكافورة الوارف ، البهيج – نتعلل بالذهاب إلى "الأدبخانة" أو " السرية الصحية " ولذلك بقي السر فترة طويلة حتى تم اكتشافه من الجميع ، وحدثت الجلبة أثر الازدحام ، وعلق القائد لافتة عليها بخط أسود عريض " ممنوع الجلوس " .

الظل قرين الهدوء ، هو في الأصل نقيض النور ، لكنه لا يدحضه ، أنه يشاركه المكان ، ولا يسعى لإزاحته ، يتداولان – عبر الزمان القصير– الكر والفر ، إلى أن يدخل الليل فيختفي هذا وذاك : الظل والنور .

واليوم حدث في الطابور ما عكر صفونا جميعاً ، إذ أن العسكري صبري الأرناؤطي تخابث أثناء توزيع تعيين الفصيلة الثالثة ، وأخفى في كيس من البلاستيك قطعتين من اللحم ، ولما تم التوزيع على الأروانات الفردية ، اكتشفنا العجز ، وراح صبري يقسم أن العجز على مستوى المعسكر كله . بينما هو يوالي قسمه المغلظ ، برز طرف الكيس من عبه ، فامتدت يد ملاك حنا الغليظة إلى صدر العسكري ، وسحب الكيس ، وبكى صبري ، رضخ لأي جزاء نوقعه عليه إلا أن نبلغ الأومباشى عويضة ، أو الصول عبد الخالق ، فقد كان يخشاهما كثيراً .

قال ملاك بغضب : هل ترضى بحكمي ؟

رد على الفور ، وكأنه غريق قد تعلق بقشة : أرضى . .

فاقترب منه ملاك ودعك أذنيه حتى احمرتا ، وكاد الدم ينبثق منهما .

قال لنا في خشونة نعرفها : غذاء هذا العسكري اليوم جراية حاف .

وافقناه ، لكنه أضاف في خبث ، وقد وقع صبري في يد من لا يرحم : بعد الغذاء سألقنه درساً لن ينساه .

جلسنا في دائرة صغيرة ، نهجم بشهية على طعام الغذاء ، كان الطبخة السوداء – أي الباذنجان الرومي – وقطعة صغيرة من اللحم بعد أن حرمنا العسكري صبري من نصيبه . وقد أحس بالذنب ، فأقعى يقرقض طرف الرغيف بأسنانه ولم يهن علينا أن نتركه على هذه الحال ، فقد تغاضانا عن خطأه ، ومد سراج يده بقطعة لحم ، وحفنة يمك .

وبعد أن انتهينا ، مرت علينا قطة ، رأيناها تعدو في الساحة الخالية . هنا التفت ملاك حنا إلى العسكري صبري المغضوب عليه ، وأمره بإحضار ظل القطة ، وإلا سيشي بفعلته .

وهنا انطلق صبري كطلقة رصاص نحو الهدف ، وراح يعدو مطارداً ظل القطة ، وكلما مرقت من بين يديه ، أعاد المحاولة ، وكان يقبض على الظل المراوغ ، ويكاد ينشب أظافره في الأرض قابضاً عليه دون جدوى .

ولما عاد إلينا خائباً ، خالي الوفاض ، منكسراً ، معترفاً بالذنب صرخ فيه ملاك : أين ظل القطة ؟

علا صدر العسكري صبري وهبط ، كانت أنفاسه متقطعة : مقدرتش أمسك الظل . . يا أفندم .

خبطه ملاك حنا في ود ، ووسع له إلى جواره ، وجعله يقسم على المصحف – وكان باستمرار في جيب سترة سراج الأيمن – ألا يفعلها ثانية ، وقد أوفى الرجل بوعده طيلة فترة الأساس .

التـــزحيـــــف

نحن في الأساس . والأساس 45 يوماً ، لا تزيد ولا تنقص . تستلم مهماتك ، تحمل المخلة ، تتحول من فرد مدني عادي ، إلى عسكري لا يتحرك إلا بالأوامر .

والجيش متاهة . الداخل فيها مفقود ، والخارج مولود . من كل جنس ولون ، وهيئة وشكل ستجد البشر : حانقين ، سعداء ، ممرورين ، لاهين ، عدميين ، متفائلين . من النقيض إلى النقيض . لكن الزمن ممتلئ بأمثال هؤلاء وهؤلاء . كل شيء كان يتوقعه خليفة مرسي الشموطي إلا موضوع التزحيف .

لقد بحث له عن سبب أو علة دون أي فائدة . فما الدافع الذي يجعل عساكر الأساس يقومون من النجمة ، وقبل شروق الشمس ، ليغسلوا وجوههم بما تيسر من ماء الجراكن ، قبل أن يخرجوا مشمعاتهم المتينة ، بلونها البني الغامق ، وتيلها المنسوج راقات ، يثبتون الطرف بقطع الزلط والحجارة ، ثم يمسكون الطرف الآخر ، ويمضون لتسوية أرض الميدان الواسع الذي لا نهاية له .من مربط خيام الأفراد ، وحتى السور البعيد البعيد الذي تعرفه الكلاب ، فلا تتجاوزه إلا بنباحها الواهن .

هناك عدة طرق للتزحيف ، أبسطها أن يُحدد لكل فرد مقطوعية يسويها بمعرفته ، ويتحمل خطأ وجود أي مساحة فيها نتوءات أو تعريجات . هذا هو الشائع والمعمول يه في أساس 2 ، 4 .

لكن هناك معسكرات تدريب أخرى تأخذ بنظرية " الجشتالت " فتقوم كل سرية بالتزحيف الجماعي ، فكأنك في حضرة رتل من سيارات الميدان تمضي في ذات الاتجاه ، وبنفس السرعة ، دون أن تترك بوصة فراغ واحدة .

كل شيء مقبول ، ومعقول ، ومحسوب في ذهن خليفة إلا هذا الأمر ، وهو يسأل كل من يقابله في صوت هامس خشية التبليغ عنه من أي واحد ابن حرام : أريد أن أعرف ضرورة التزحيف ؟

ظل يسأل ، ولا أحد منا يجاوبه ، ويضع له العقل في رأسه .فليس من المعقول أن نسأل في كل كبيرة وصغيرة . هناك في العسكرية تكتيكات واستراتيجيات ، وما نحن إلا عساكر بلا ظهر أو سند . بل الغريب أن يصدر مثل هذا السؤال عن خليفة بالذات ، وأبوه كما علمنا منه يُصلح الأحذية عند أبواب جامع السيد البدوي . يضع السندان على الأرض ويبدأ عمله قبل الظهيرة كل يوم وحتى يشطب آخر فردتين ، وكله برزقه .

مرسي الأب – والله أعلم – عوّد ابنه على التلصص على الحديث ، والسؤال عن كل أمر ، من طقطق إلى السلام عليكم .

ربما كان لحوحاً في مسألة التزحيف ، أما أن يحولها إلى قضية عمره ، فهذا معناه أن دماغه
" جزمة " قديمة .
وهذا ما حدث له من جراء اللت والعجن في موضوع مفروغ منه . فقد حوله الأومباشي إلى الصول ، لما سأله الصول عن السبب . أشار الخبيث إلى العسكري المستجد الذي لم يكن له خبرة بأمور الدهاء : أسأل عن التزحيف . لماذا نقوم به ؟
والصول عرفة أبو غزالة الداهية وجدها فرصة للتنكيل بنا جميعاً ، بأن يوقع الأذية بهذا الأبله ابن " الصرماتي " .
والمثل قال : " اضرب المربوط ، يخاف السايب " . ولكن للأسف كلنا مربوطون من أعناقنا منذ اليوم الذي دخلنا فيه منطقة الفرز ، وجردونا من الثياب إلا ما يستر العورة ، وبحثوا عن الفتق والبواسير والسل و . . . . . .
عندما انتهوا ، وختموا الورق بالكودي الأسود بكلمة " صاغ " صرنا لا نسأل ، ولا نجرؤ على رفع الحنجرة بصوت حتى لو كان واهناً .
الضابط أنور – وهو ضابط مخلة ، لا قلب له – ربت على كتف العسكري الغلبان ، وسهاه في الكلام : خير يا دفعة ؟ ، ابتسم الغر ، وبانت نواجذه : فقط ، أسأل عن التزحيف . هل كل جيوش العالم تزحف مثلنا؟
الضابط أنور ، تركه ، وراح يقلب السكر في قعر كوب الشاي ، وعاد إلى مكتبه في وسط الخيمة ، وقد أدرك أن الفأر قد وقع في المصيدة . شجعه على الكلام أكثر ، فأضاف ابن مرسي الشموطي : التزحيف تضييع وقت . أريد أن يصل صوتي للقيادة .
لسان حال الضابط : اللهم طولك يا روح .
لكنه يطلب المزيد من الكلام السائب ، ربت على كتفه بتشجيع ماكر :
قل كل ما عندك . . يا عسكري .
وضع الكوب على حافة المكتب – وهو منضدة ملخلعة قوائمها ، أما سطحها فمن خشب جميز مسوس – وسوى أطراف شاربه ، وأمر بطابور ذنب 8 ، 9 .
وقبل أن ينصرف ، وخزه في صدره : ها . . أتريد أن تعدل الكون . . يا روح أمك !
ربما فكر في صفعه ، لكنه تراجع ، وقرر حرمانه من الإجازة الشهرية ، وخدمتين " كينجي " زيادة .
وحين رجع العسكري خليفة ، بان عليه الإرهاق بعد دورانه في ساحة التدريب حاملاً المخلاة ، والعرق يشر منه ، وهو يلهث وصوته يطلع بصعوبة : لن يقنعني أحد بأن التزحيف ضروري ، حتى لو قصفوا عمري .
وفي الخيط الأول من فجر اليوم التالي ، كنا نزّحف رمال الموقع بهمة أقل ، وكان العسكري خليفة يشاركنا الأمر متعباً ، موجوع القلب ، فقد قضى نوبة الكينجي وهو يكلم نفسه : التزحيف خطأ .
كان أغلبنا يرى الأمر نفسه ، ولم يكن أحدنا على استعداد لذلك العقاب الصارم ، فالجيش له عبرة حفظناها مراراً وتكراراً : " نفذ الأمر ولو خطأ " .
ولقد رأينا مصير من جرؤ على مناقشة الأمر ، فما بالك لو رفضه .

استمر التزحيف ، وحين سوينا الأرض ومهدناها ، هبت عاصفة صغيرة ، فمسحت كل ما فعلناه . ضحك العسكري خليفة وهو يشير إلينا بيده : زحف يا عسكري ولو خطأ .
.
كانت ضحكته منقوعة بمرارة وحزن بلا حدود .

يـاقــات حمـــراء

عرفنا أنه ابن ناس من أول وهلة . بنظراته الواثقة ، ووجهه الخمري المستدير الذي لم تلوحه شمس بعد ، وبتلك الابتسامة العريضة التي استقبل بها خبر توزيعه على سلاح المشاة .
كنا على ثقة أنه لا يكذب علينا – في نوبات الراحة – حين يحدثنا عن أعمام له ، وأخوال يحملون رتبة اللواء أو العميد ، ويمكنهم بإشارة إصبع أن يوزعوه على أسلحة الخدمات التي لا مشقة فيها ولا تعب .
تأكدنا أن سراج مصطفى ، والذي سيصبح في الأيام التالية محامي المعسكر له مخ مختلف . لقد أراد أن يخدم بجد ، ورغم بكاء الأم ، وتوسلات الأب بالتوسط له عند أصحاب الأمر والنهي كي يتم توزيعه في وحدة مناسبة إلا أنه رفض رفضاً تاماً .
وها هو بيننا ، واحد منا وعلينا ، يضع يده في جيب سترته فتبرز علبة سجائر " الكنت " ، يعزم علينا عزومة مراكبية ، ويشعل سيجارته بكل ترفع وكبرياء .
وسراج مصطفى القرانفلي ، ابن الناس ، أخذ في أول يوم خدمة درساً لن ينساه ، عندما سأله الأومباشى عويضة عن مؤهله ، فرد بثقة بانت في نبرات صوته : ليسانس حقوق . . يا أفندم .
لحظتها ارتبك الأومباشى ، لعلها ثوان قليلة ، وانطلق كالمدفع " المتريوز " مهاجماً العسكري المستجد : عليك أن تدفن شهادتك هذه في أقرب حفرة . وانس الليسانس ، وإلا ستتعب .
وجعله يتحرك خطوة للأمام ، ويقلع طاقية الرأس ، ويختبر صلابته بأن ضربه في كتفه ضربتين قويتين ، وسأله على الفور : بماذا شعرت ؟ ، على الفور رد المحامي سراج : لا شيء يا أفندم .
وقبل أن يكمل جملته جاءته اللكمة في بطنه مفاجئة ، قوية ، ولقد حاول العسكري المستجد امتصاص الصدمة ، لكن تقلصات الوجه فضحت ألمه الذي أخفاه في حشرجة مكتومة .
أمره بالرجوع للصف ، واستمر طابور التدريب الأولي : صفا . . انتباه . . الخطوة المعتادة ، للخلف در ، استرح . والشمس تصب حممها ، اقترب أومباشى آخر لم نكن نعرف اسمه ، لكن قسمات وجهه ، وطريقته في الحديث دلت على أنه متطوع ، استلم

الطابور بعد راحة خمس دقائق ، وهمس الأومباشى عويضة في أذنه . وهو – بدوره – لم يكذب خبراً فجأر صوته في الخلاء : سريعاً جري ، مع الوثب لأعلى .

وانطلقنا في جري دائري حول وتد خشبي تم دقه في ساحة التدريب ، والكل يلهث ، وينساب العرق خيوطاً ، تنحدر تجاه العينين ، فنتألم من الملوحة ، ونهمهم : كفى . . يا أفندم .

والأومباشى المتطوع لا يكفيه إلا أن نطب ساكتين ، وقد صعّب الأمر علينا بأن جعلنا نصعد التبة الصناعية ونهبط مرات ومرات ، وعساكر منا تتساقط ، وهو يجذبها بعنف ، ويدفعها للطابور من جديد ، حتى تقطعت أنفاسنا ، وامتقعت وجوهنا .

نظرت للعسكري سراج ، كان يغالب ألمه ، والعرق يصنع دائرتين واسعتين تحت الإبطين . وجاء الأمر صارماً كالسيف : قف . . لليمين حذا . .

لحظات التقاط الأنفاس . انتظرنا الأمر استرح لنمسح بالمناديل الكاكية عرقنا دون جدوى . خبط الأومباشى المتطوع سراجاً في كتفه : ما هذا البلل ؟

لم يرد المحامي المنخرط في الخدمة حديثاً ، فالسكوت في الجيش من ذهب .

ونظر إلى البنطلون الواسع الفضفاض ، كانت هناك خيوط لا تكاد تبين من عرق : هل عملتها على نفسك ي عسكري ؟

تقدم سراج خطوة للأمام ، ونطق بقوة : أنا متظلم . . ما يجري هنا ضد أبسط حقوق الإنسان .

شخر الأومباشى ونخر ، وأطلقها كالقذيفة : نعم ، يا روح أمك .

ثم بدأ الأمر بالزحف الثعباني ، والأرض قطع من حصى ، لها سخونة لا تطاق . ولم يجد سراج مصطفى القرانفلي مفراً من تنفيذ الأوامر بكل دقة .

وبعد انتهاء طابور الزحف ، سأله الأومباشى المتطوع : ما شعورك الآن ؟

تأمله العسكري من قدميه إلى أعلى الرأس بنظرة كلها غل وأسى ممتزجين : شعوري أنك جاهل!!

ضج الموقع كله بالضحك ، حتى أن بعضنا ضرب كفاً بكف ، فقد كانت ملاحظته صائبة ، وعرفنا فيما بعد أن الأومباشى الذي يكدر سراج ، ما هو إلا راسب إعدادية .

توقف الهرج والمرج حين جاء الأومباشى عويضة واستلم الطابور ، وشكر الأومباشى المتطوع : شكراً يا أومباشى فؤاد .

كان الأومباشى فؤاد المنصوري – وهذا اسمه الذي عرفناه فيما بعد – يمضي نحو " الكانتين " ساحباً خجله خلفه ، وكانت الهمهمات المكتومة تعلو ، وتنخفض طيلة الربع ساعة المتبقية من طابور التدريب .

وقت الراحة تحلقنا في مرح صاخب حول العسكري سراج ، المحامي الذي يتحدث عن حقوق الإنسان . غمز لطفي فرو بعينه الحولاء ، وهو يسأله : أتدافع عن نفسك أم عنا ؟

بنبرات صادقة ، لا اصطناع فيها : أنا مثلكم .

خبطه توفيق مصيلحي الأهبل في كتفه بمودة : أصيل يا ولد . اعطني سيجارة " كنت " .

في لحظة لم تبق في العلبة إلا ورقة السلوفان المفضضة ، فطوى العلبة ، فركها في يده ، اتجه نحوي : الجيش هذا . فيه من الحياة كثير . لا يمكنك تفصل بين النبيل الرفيع ، وبين الدنيء الوضيع . فيه معاناة وتعب ، لكن له قانونه . عليك أن تفهمه . ستخسر كثيراً إن فرضت عليه شروطك .

شردنا جميعاً ،وصاح فيه العسكري صبري الأرناؤوطي : أهي مرافعة يا أستاذ ؟

عاد الضحك من القلب ، وعمنا صفاء نقي ، غسل أرواحنا المجهدة .

بعد أسبوع واحد ، زارت الكتيبة سيارة جيب ، ارتج لها المعسكر كله ، ونزل منها ضباط كبار ، بشارات أركان حرب الحمراء المثلثة على طرفي الياقة ، ودوىّ صوت البروجي ، وتم جمعنا في غير وقت طوابير التدريب . واهتم الصولات بالزي ، ونظافة الخيام ، ورفع علم جديد على سارية ساحة التدريب الأساسية .

وجاء الضابط أنور عدواً ، وهو يسأل : أين الباشا سراج مصطفى ؟ ضحكنا جميعاً للفظ " الباشا " . تقدم من العسكري ، وهو يسأله في ود كذوب لا يخفى على عاقل : مبسوط يا سراج ؟

هز العسكري سراج رأسه ، فلم يعرف الإجابة بالضبط . إلا أنه أخذه من الصف ، وهمس في أذن الأومباشى عويضة : يبدو أننا ستأخذنا داهية .

وفي خيمة القائد ، جلس سراج مصطفى مع أقاربه ، قدموا له لفائف طعام وحلوى ، وقروصة سجائر " كنت " ، وسأله قريب له عن الحال ، فرد على الفور : هي تجربة .

نظر إليه عمه اللواء ، وهو يختبر عناده : أننقلك إلى السرية الطبية لتكون قريباً منا ؟

تجهم العسكري مصطفى ، ونسي الرتبة التي يتحدث معها : قلت أنني مستريح هنا .

تنفس القائد في راحة ، وجاءت زجاجات المياه الغازية ، ودارت على الرتب ذات الياقات الحمراء . والغريب أن العسكري سراج ظل واقفاً كالألف عند باب الخيمة التي تدور المروحة في سقفها ، والتي يشغل الركن الأيسر جهاز تليفزيون . حتى أنه رفض زجاجة المياه الغازية .

وحين أوشكت الزيارة على الانتهاء ، قال خاله المقدم : أنت تعرف تليفون كل منا ، حدثنا عند أي مشكلة .

قال لهم ، وهو يستدير عائداً إلى الطابور : لا مشاكل لديّ . . المشكلة عندكم في الجيش نفسه .

وقد ركبوا سيارة الجيب الأنيقة ، وهم يتابعون سيره إلى الجمع المصطف ، ولم يدهشهم حديثه ، فقد كانوا يعرفون أنه متمرد بطبعه . لكن لديهم إحساس لا يخيب في أنه سيعرف الكثير من أمور الحياة في هذا المكان الموحش ، المنقوع في الخلاء .

أربـعة شـرائــط ســـوداء

كل عسكري مستجد ، عليه أن يعتبر نفسه قد سقط من قعر القفة . وواجب عليه أن يخشى صف الضباط والصولات ممن وهبوا زهرة شبابهم للجيش ، حتى شاب شعر رؤوسهم ، ووهن العظم منهم ، رغم أن أغلبهم لم يتجاوز خط الأربعين باستثناء خلاف خلف ، والصول عبد الخالق ، والأومباشي عويضة .

كان الأخير قد حصل على أربعة شرائط ، وفعل فعلة نكراء ، فخفضوا رتبته ، واقتصوا منه شريطين ، ويقال أنه ظل يبكي هذين الشريطين أياماً وليالي حتى صارت الدموع دماً ، وفي هذه مبالغة لا نرضاها .

ما علينا . تعالوا معنا لخلاف ، وصلوا على النبي ، فحكايته حكاية . إنه راضع الميري من " بز أمه " ، فلا ضحكة ولا ظل ابتسامة . فقط تجهم وعبوس لا حد له .

سواء في الطوابير أو ساعة المرور على الخدمة ، يقف كالوتد المدقوق في الأرض عندما يتحدث إلى أي ضابط ، وتراه حريصاً على قص شاربه ، وحلاقة ذقنه مرتين يومياً ، أما الشرائط التي تحتل حيزاً كبيراً على كتفه ، فكل فتلة منها لها ثمنها . وهو صعيدي قح ، بلهجة قاهرية ، فالأهل قد استوطنوا الشرابية منذ أربعة أجيال .

لكنه منقوع في صهد " جرجا " بالوراثة . فإذا كان الصول عبد الخالق حريص على الضبط والربط ، وذل الجنود في صحوهم ومنامهم ، فإن خلاف يزيد على ذلك بأمرين ، الأول كرهه الشديد لأي مجند يحمل مؤهلاً عالياً ، حيث يحاول تصيد خطأ من هنا أو من هناك ليمسح بكرامته الأرض .

الثاني حبه الشديد للصعايدة ، أصحاب البشرة السمراء ، فلهم وحدهم المعافاة من لم الورق ، وانتزاع الحصى في عز نقرة الشمس ، وهذه وسيلة لتتحول بشرتهم الفاتحة إلى سمراء ، كي تسري في دمهم النخوة والرجولة .

خلاف خلف متطوع ، متجهم ، عصي على الضحك ، عيبه الوحيد الذي يعترف به بينه وبين نفسه أنه كان يصلح ضابطاً ، والظروف وحدها هي التي عاكسته ودفعت به إلى درجة أدنى .

إنه لا يعترف بالوقت ، وفي تقديره أن الواحدة صباحاً ساعة مناسبة جداً ، ليجمعنا من عز نومنا ليتفحص وجوهنا في ضوء النجوم البعيدة ، ليرى هل نفضنا النوم من أعيننا أم ما زلنا مستسلمين لسلطته ؟

يقف مرتدياً زيه الميري كاملاً وكأنه ذاهب للعرض العسكري فيتلو على أسماعنا واجبات الجندي عند تعرض الموقع لخطر هجوم الأعداء .
نبلع ريقنا ، ولا أحد يجرؤ على معارضته ، وإخباره أننا في معسكر تدريب ، لا فيه هجوم ولا يحزنون .
لكن من يعلق الجرس في رقبة القط ؟ هذا السؤال حيرنا كثيراً . وضعنا أملنا في سراج القرانفلي ، فهو ابن ناس ، وعائلته واصلة . لكنه امتنع عن التصدي لهذا الباشجاويش المغرور .
وصدق المثل الذي يقول : " يضع سره في أضعف خلقه " .
فقد فاض الكيل بالعسكري " البوطسى " ، وهو اسمه الأول ، الذي حيّرنا ، مثلما أغاظنا صمته على مدار خمسة وأربعين يوماً ، قضاها في هدوء وسكينة ، فلا يرد على أي سؤال إلا بكلمة واحدة لا غير : " أفندم " .
جمعنا خلاّف كعادته ، فقمنا نهرول ، وخلفنا بخطوتين جاء البوطسى يمسح نومه بفوطة بللها العرق . وقفنا صفوفاً ، كالأسرى الذين يستعدون للشحن في قطارات الليل .
شخط الباشجاويش فينا جميعاً ، اتهمنا بالدلع وقلة النخوة ، بالليونة والمرقعة . أعطانا درساً في الانضباط الكامل ، والسرعة في تلبية الأوامر .
كانت أجسادنا ما زالت محتفظة بشحنة النوم ، وسخونة الأغطية ، بل إن بعضنا كان يحاول اختلاس سنة نعاس . في الوقت الذي انتهى فيه كلام خلاف ، ارتفع شخير خفيف لفرد في الطابور .
بهتنا للصوت . للحظة أو أقل ارتبك خلاف ، وسرعان ما ارتفع زئيره ليرج العساكر : من شخر منكم عليه أن يتقدم خطوة للأمام .
لم يستطع أن يبصر الفاعل في ظل هذه العتمة الموغلة في حذرها . وظلال الأعمدة في آخر المعسكر تتحرك مسرعة كلما مرت سيارة ، أو أضاءت فوانيسها للحظات .
البوطسى ، الذي لا يتكلم قطعياً ، رأيناه يتقدم . يعلو شخيره أكثر فأكثر . وإذا بيده تمتد إلى ساعد الباشجاويش فتنتزع شرائطه السوداء ، وتلقي بها إلى الساحة الواسعة .
ارتفع الظياط ، وهلل العساكر ، فأسرع خلاف إلى الساحة ليأتي بأشرطته . وعندما عاد لم يجد في المكان عسكري واحد يوحد ربه .
في صباح اليوم التالي حلقوا رأس البوطسى ، وشاربه ، وتم تكديره لثلاثة أيام متتالية . إلا أن صمته كان يشوبه همهمة غامضة . واحتلت وجهه ابتسامة لا يراها ، ولا يحسها إلا العساكر أمثالنا !

الـهـــــدف

كانت أسنانه تصطك ، وقلبه يرتجف ، وهو يقبض على بندقيته ، ويستعد للتقدم نحو التبة ، كي يرقد على بطنه ويستعد لإصابة الهدف .

للمرة الأولى في حياته التي يقيض له أن يضرب ناراً ، أو يسمع صوت الذخيرة الحية ، وهي تخترق الشاخص ، وتصطدم بقطعة المعدن الصغيرة بالحائل الصخري العنيد .

يسمع كثيراً عن حوادث الثأر بالصعيد ، لكنه من بحري ، وقد شرب مهنة الأب ، التي أخذها عن سابع جد ، ويده تلك التي تحفر زهوراً في الخشب الزان والسويدي تُلف في حرير .

هو الآن يستعد لتلك اللحظة الفارقة في حياته ، وعليه أن يفعل المستحيل كي يكتم أنفاسه ، ويضبط زاوية التنشين حتى لا تطيش طلقاته .

ليس عليه أن يفكر في الورشة ، ولا في عدة الشغل التي تركها في البنك ، ولا في صورة ´سعاد حسني " التي تضحك لزهور النرجس من حولها ، وتغني بصوت كله مرح " الدنيا ربيع "

الرمل الأصفر يحاصره ، بلونه الأخرص ، وخشونته ، والشمس تسقط وراء ظهرها ، فتثير حنقه .

ركب السيارة إلى التبة منذ الصباح الباكر ، وراحت العجلات تنهب الطريق ، ومفاصل المقاعد الحديدية تتكتك ، وترجه رجاً ، فيستند بمرفقه على ساق من يجاوره . غشيه حزن لا يعرف دوافعه ، وفي انحدار خيط العرق على رقبته تأكد أنه لا يحلم ، فاليوم هو ختام الكلام النظري ، والدخول بكل ثقة في معمعة الفعل .

في أفلام السينما التي يحرص على مشاهدتها صباح كل جمعة ، كان يبسطه أن يشاهد المعارك الحربية ، والجيوش تتحرك في جحافل مرعبة ، بينما الرصاص يفتك بالجنود من الطرفين .

كانت البنادق والمسدسات في أيدي المتحاربين ، وكان يجلس مسترخياً في كرسيه المعتاد آخر الصالة ، وبالقرب من الحائط ، تتثاءب ، وهو يغالب وخمه ، ومنديله المطوي بعناية في جيب السترة ، يمسح به وجهه ، فتملأ أنفه رائحة "سيكريه " . هو الآن في قلب الفعل ، والصول يرفع يده بالعلم الأحمر ، ويأمره بالتقدم ثلاث خطوات للأمام .

" انتباه " . لأول مرة يعي أهمية هذا اللفظ ، فيحلله إلى حروفه قبل المزج ، ويدرك أن حالة الانتباه للهدف تعني له الكثير .

حمل السلاح الآلي ، وشعر بأن ثقله لا يحتمل ، والسونكي المدبب للأمام في غطرسة ثقيلة ، أكدت له خطورة الأمر .

خشخشة الصدور من حوله ، يسمعها ، وتسقط نظراته على أسراب نمل تتحرك يمين المدق ، ثم ما تلبث سحابة خفيفة أن تعبر فوق الهدف ، فتظلله لثوان معدودة ، قبل أن ينكشف عن ضوء صريح ، لا ريب فيه .

" انبطح " . أمر لا مجال فيه للتراجع . على نفس الخط الوهمي ينبطح البوطسى ، والأرناؤوطي ، وسراج القرنفلي .

كل يقبض على سلاحه في استماتة ، يلصق الدبشك بكتفه لصقاً ، ويغمض عينه اليسرى ، وتحط ذبابة على أنفه فيكاد يجن ، لكنها تبعد – ربما رأفة به – فيضع كل همه في الخط الواصل من فوهة البندقية إلى أسفل منتصف الهدف .

" استعد " . تنفتح في هذه اللحظة طاقة نور لتأخذه إلى عالم آخر ، حيث عليه أن يثبت رجولته . هي لحظة أشبه بلحظة الجنس ، واكتشاف عوالم الأنثى ، وسحرها الخفي .

ربما كانت اللحظة بقسوتها ، وخشونتها ، على النقيض تماماً . لكن الاصبع سيضغط ضغطته القوية بلا أي إحساس بالذعر . وقتها يدخل دنيا أخرى .

" اضرب " . وقف شعر رأسه ، ويسراه تحتضن مقدمة البندقية الملساء ، وصدغه يضغط بقوة على الدبشك الأملس ، ورائحة عرق تنفذ إلى نخاشيشه .

" اضرب " للمرة الثانية . اكتشف أنه لم ينفذ الأمر بعد ، وحينئذ هصر الزناد ، فشم رائحة البارود ، وارتج صدره فبادر ، بإطلاق رصاصات تلو رصاصات ، وعينه المفتوحة تدمع ، لكنه يواصل الرمي حتى نفذت طلقات الخزنة .

" انهض " . كان انساناً آخر لا يعرفه ، يهب من انبطاحه القسري ، وثمة رائحة بارود تختلط بعرق يتصبب من جبهته ، في تلك اللحظة لم يعد لديه شك في أنه قد ترك خلفه كل مفردات الماضي .

لم ينفض عن ثيابه بقايا الرمال العالقة بنسيج القميص ناحية المرفقين ، داخت رأسه لزمن يقترب من اللحظة ، وجد ساقيه تتحرك للمؤخرة مع زملاء الرمي .

ولقد شعر أنه أطلق رصاصاته الأولى ، وصار خفيفاً ، قادر على التحليق ، والارتفاع في الفضاء الفسيح إلا أن روحه البريئة أشعرته بالذنب .

تفادى النظر في عيون الزملاء ، وفي الليل ناوشه شعور خفي بالرضا عن نفسه ، ولاحظ الشعيرات التي بدأت تنبت في صدره أسفل وأعلى الثديين ، وحول السرة !

في الليل شعر بأن روحه تنتحب نحيباً خفياً ، وكان عليه أن يضع رأسه على الوسادة الخشنة ، ويخفي دموعه التي تسللت على غير إرادة منه !

القسم الثاني:

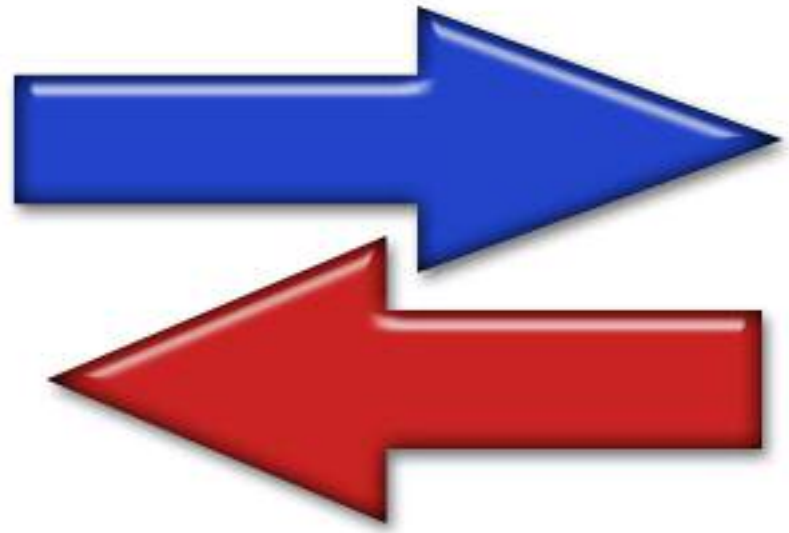

نظرة على حكايات الأخصائي

البنـــــات

بعد خمسة وأربعين يوماً بالتمام والكمال في معسكر الأساس ، حصلنا على أجازتنا الأولى . أدركنا أن أصحاب الزي الكاكي لا يغادرون ثكناتهم إلا بتصريح ممهور بإمضاء رئيس العمليات ، والخاتم الأسود على هيئة نصف دائرة حاملاً كودي الوحدة .

بعد عودتنا تم توزيع الجزء الأكثر عدداً على الكتائب الميدانية على ضفة القنال ، وسيناء . لم يكن قد مرّ عام كامل على حرب 1973 ، وفوجئنا بقوائم المميزين تُدفع إلى الأخصائي .

سألنا عما يعنيه تعبير " الأخصائي " ، فكان الرد أكثر إبهاماً : ستذهبون وتعرفون .

كان المعسكر في نفس المنطقة ، لكن القشلاق أوسع بكثير ، والنظام فيه أحسن ما يكون . هنا يتم تدريب سرايا المشاة المتعاونة : الهاون 82 مم ، الرشاشات الخفيفة ، الـ م / ط ، الـ م / د . . وغيرها .

الصيف على وشك الاندحار ، ولم تعد تخوفنا طوابير التمام ، والتدريب ، والمهارات الأساسية في فك وتركيب البندقية الآلي ، ولا تنظيف الماسورة ، والسونكي صباح كل يوم .

في " الأخصائي " ، صرنا أكثر هدوءاً ، وأقل صخباً . والبكاؤن كفوا تماماً عن النحيب . والنعرة الكذوب عن الأصل والفصل توارت تماماً ، فالكل أولاد تسعة . ومهما قلبت الأمر على وجهه ، فلا وجود للعدل المطلق ، أو الراحة الأكيدة .

لأن العسكري يكدره أومباشى ، والأومباشى يضعضعه صول ، والملازم يفعل بما هم دونه رتبة كل ما يمكن تصوره ، أما اليوزباشى أو الرائد فهي نجوم ونسور تمشي على الأرض بالكاد .

سنعرف فيما بعد ، وحينما نذهب إلى الكتائب القتالية أن كل ذلك سيتبدد ، ليس تماماً ، ولكن ستكون هناك ترتيبات إلهية من لدى حكيم مقتدر ، تجعل الرتب الكبيرة أكثر رحمة ، وأدعي إلى التسامح رغم الخشونة الظاهرة .

لكننا الآن في الأخصائي ، وقد تيقن كل عسكري أن الأمر قد اختلف الآن . ولا بد أن توجد " البنات " . في صور فوتوغرافية داخل الحوفظ الجلدية . بنات مثل العسل ، ترقد صورهن بين طيات الأوراق الهامة . وفي كل فرصة مناسبة ، وبلمح البصر يتم التوحد ، وتشهق الصدور المعذبة بفراق قسري لا راد له : في الأساس كانت هناك إشاعة قوية بأن القيادة تدس سائل الكافور في مشروبنا المبجل " الشاي " ، فتهمد الأعضاء ، وتسكن الأطراف .

في الأخصائي ، صار الأمر أسهل نسبياً ، فالحصول على تصريح بالمبيت يمكن مرة أسبوعياً ، وهي فرصة نادرة لشرب الشاي العادي في المقاهي ، والغرز القريبة حول القشلاق .

يمكن الآن الخروج خميس وجمعة ، وسيندفع الكل تجاه محطة المترو ، هناك يمكن رؤية البنات في أبهى صورة ، كل واحدة تحتضن حقيبة المدرسة ، وتخفي الصدر الناهد لحين .

أفراد المعسكر تغيروا ، وصار التعارف أسرع ، يبدأ بإشعال سيجارة ، ولا ينتهي إلا بالعودة للقشلاق بعد أربع وعشرين ساعة تشغلها حكايات عن البنات .

البنات في المناطق الملاصقة لمعسكرات التدريب كلهن حرص واحتراس ، كلما ابتعدت إلى الأطراف يمكن أن تعثر على بنت جميلة ، شعرها ذيل حصان ، ونظرتها حنان وولـه . بنات ممشوقات يرتدن الكريب والحرير ، والبلوزات الصيفية المفتوحة حول الأعناق .

كل الحكايات تبدأ باصطدام صنعته صدفة ، واعتذار ، ثم تمشية على الكورنيش ، حيث يلعب الترمس دوره الخالد في تقريب المسافات بين العشاق ، فهو – أي الترمس – يصنع مسافة زمنية بين كل سؤال وجواب ، مسافة زمنية كافية تماماً لتدبير الكلام المناسب . وتصبح الوردة الحمراء ، أو عنقود الفل المرصع بالياسمين هو عربون المحبة .

كل رجال " الأخصائي " يبحثون عن البنات ، وعن قصص حب حقيقية أو زائفة . المهم أن تكون هناك فتاة تنتظرك كل خميس على رصيف المترو ، أو أمام سينما صيفية ، وربما في حديقة عامة مفتوحة .

لا أحد من العساكر يفكر في الحرام ، أن القلوب الكليلة لا تعرف الملاوعة ، والكذب . فتنة البنات تتجلى في لحظات الصمت الطويلة حين تتماس الأصابع ، وتسري الارتجافة من الأكف إلى الصدور .

ما حال ابن النفيس ، وهو يكشف عن الدورة الدموية للإنسان ، هل اكتشف فروق في الدرجة بين سريان الدم في قلوب المحبين ، وغيرهم ممن لم يدخلوا في تجربته ؟

هل للأفرول الكاكي سحر ، وهل للبيادة السوداء الثقيلة فتنة ما ؟

لا أحد يظن هذا . ربما كان السر في تلك الأجساد الفتية التي تتفجر صحة وعنفواناً ، والأذرع المفتولة التي تعلن عن رجولة حقيقية .

أما الشعر المفلفل القصير بطول ربع بوصة ، فهو يخص القشلاق وقوانينه الصارمة لا الأفراد المغلوبين على أمرهم . كذلك فإن البشرة السمراء التي دبغتها الشمس فإن لها طابعاً شعرياً ، يخطف قلوب البنات خطفاً .

القلوب الغضة بحاجة إلى حب بريء ، يبحث عنه العساكر في أجازة الخميس والجمعة التي تستمر في " الأخصائي " لشهرين كاملين .

الضفائر الناعمة الطويلة ، والشعور المنسابة على الظهور تقوم بالفعل نفسه . فهي تومئ إلى طبيعة الشخصية . أما لغة العيون فهي الحد الفاصل بين الموافقة والامتناع . وتظل هناك منطقة محايدة ، تتقلب فيها القلوب ، بين الرفض والقبول ، فالحب بحر غويط ، يحتاج إلى غواص ماهر .

والعساكر ككل الرجال ، يحتاجون إلى البنات أكثر من غيرهم . فالحرمان الطويل يولد العطش . ولمسات قليلة من الطبيعة تحول البنت البريئة إلى فتاة باهرة الجمال .

لكن في ليل المعسكر ، لا أحد يبوح بسره ، لا أحد يسمح للآخرين بانتهاك سره ، حتى لو كان ذلك بالتلصص ، واستراق النظر إلى صورة فوتوغرافية ، فالمبدأ لا يتجزأ .

وهذا ما دفع عبده طه لأن يتشاجر مع زميله يوسف الفناجيلي حين كان يستحم في الخلاء بزمزميته ، وعاد ليجد صورة فتاته بين يدي صاحبه ، يحملق فيها بفضول غريب .

صعد عبده طه الأزمة ، وأقسم أنه سيثأر لكرامته ، وجلس في ركن الخيمة مقهوراً ، منزوياً ، يزم شفتيه في غل مكتوم.

بعد أسبوع واحد كانت صورة " نوال " بين يديه يقلب فيها بنفس الفضول ، بعد أن ذهب زميله إلى الأدبخانة وعاد بعد ربع ساعة .

حملق العسكري يوسف في الصورة ، وعلا صوته تسخيناً للمشاجرة ، فسارع خصمه بالحديث :

انتظر . . واحدة . . بواحدة .

وظل " الأخصائي " ضمن طوابيره المتعددة مطمعاً لكل عساكر المشاة المستجدين بحثاً عن نسمة هواء منعشة عصر كل خميس وجمعة ، ولكنه لم يكن يستحوذ إلا على المتميزين في فرز حقيقي واختبارات دورية في " الأساس " .

في هذا المعسكر كانت الأفرولات العسكرية قد تم تضييقها أو توسيعها لدى الترزية في كافة مدن وقرى القطر . وصار الزي أنيقاً ومناسباً ، بل أن البعض تفتق ذهنه عن حيلة بارعة ، وهي إخفاء زي خاص بالأجازة ، فيه كل فنون الموضة ، وأصحاب هذا الاتجاه كانوا فريسة دائمة لرجال الشرطة العسكرية في مطارداتهم الليلية المثيرة .

أما أبناء الريف ممن نهشتهم البلهارسيا ودودة الانكلستوما ، فقد كان لهم حريمهم ، من بنات العم والخال ، وعادة ما يتم عقد القران فور الانخراط في الجندية . ويسمى هذا " حبس " العروس لحين انتهاء فترة التجنيد .

قلت في بالي : حبس هنا ، وحبس هناك .

لا أحد سمعني ، وسيطرت عليّ فكرة : ماذا لو خلق الله الكون بدون بنات ؟

وماذا كان العساكر يفعلون في أجازاتهم بغيرهن . إن هذا الجنس اللطيف ، الآسر ، المعذب للرجال ضرورة . إن غموضهن ، وجمالهن الأكيد يدحض كل نزعة للجنون الخالص .

حمدت الله أنه خلق البنات ، للعساكر ، يحببهن في إخلاص ، وود عميقين .

حـرامـي الـحـلـة

الجيش تأديب وتهذيب وإصلاح . أنت لا تستطيع أن تتحرك إلا بناء على أوامر من هو أعلى منك رتبة .

يسري هذا المبدأ على البشر في سلك الجندية . في البداية تشعر بالقيود التي تحاصرك ، وبالسلاسل تصلصل داخلك . لكن العسكري المصري داهية في البحث عن ثغرات ، ومواطن الخلل ، لذلك تجد أن الأوامر لا يتم تكسيرها ، بل الالتفاف حولها في براعة .

فمن يضيق صدره بطوابير التدريب في عز الحر ، عليه أن يصيب نفسه بحمى صناعية ، بأن يأكل علبة حلوى كاملة ، يتبعها بابتلاع حفنتين من الشطة السوداني ، فإذا بالعرق الغزير يتفصد على الجبهة ، والبدن يرتعش . ويكون من الضروري نقله إلى السرية الطبية ، التي تجهز سيارة " زل " قديمة متهالكة كي تنقله على وجه السرعة إلى أقرب مستشفى ، كان هذا هو السائد في " الأساس " ، أما في " الأخصائي " فهناك تدريب عنيف ، لكن ثمة فترات راحة معقولة .

رغم هذا ، فقد طقت في دماغ فكري الحلو أن يرى شوارع الحي الراقي في غير أيام الخميس والجمعة ، وخاف أن ينكشف أمره إذا ما تجرع الحلوى والشطة . وابتكر حيلة جديدة بالتعاون مع ملاك حنا صاحب القبضة الأسطورية . فقد أعد العدة لوضع نوع من الدهان على الوجه والعنق ، ثم وقف في الشمس مقدار ساعة كاملة ، وسرعان ما صار جلده أحمر مشدوداً كأنه الطبلة ، راح يسب ويلعن ، ويصيح أن مرضاً قد أصاب جلده ، أخفى الجميع ما رأوه من أمر الدهان ، وتم تحويله مع توفيق مصيلحي ، وملاك حنا نفسه ، شريكه في المؤامرة .

وبعد التوقيع على أورنيك العيادة ، سارت العربة في طريقها مشيعة بنظرات الحسد الأكيد .

في الشطر التالي من النهار ، لم يكن هناك شيء يفعله العساكر ، لذلك تفتق ذهن لطفي فرو أن يلعب مع الحشرات . نقَب في أنحاء المعسكر على زجاجة تشف ، وملأها بالرمل الساخن الذي تشعر بأنه جمر من النار ، ثم راح يصطاد النمل الكبير المعروف بالاسم الحركي " حرامي الحلة " ، ويضعه داخل الزجاجة ثم يرقب الصراع الدامي بين النمل الأسود الحبيس الذي يحاول الصعود ، وكلما نجحت نملة في الوصول إلى حافة العنق ، هزها – أي الزجاجة – بعنف ، فراحت تنزلق وتحاول من جديد .

كان لطفي فرو يمارس لعبته الغريبة ، بكثير من المتعة ، فلما جاء زميله الحناوي ليسأله عن سر ما يصنع . نظر إلى وجهه في تحد عنيف وكأنه يلكمه بالكلمات ، صرخ في وجهه : ألا ترى ، هذا ما يحدث لنا يا دفعة ؟

فلما أراد الاستفسار : كيف ؟

هز رأسه بعد أن يأس من غباء هذا العسكري الذي يأخذ الأمور ببساطة : إنني أبحث عن السبب ، وسأهتدي إليه .

إلا أن النمل الأسود لم يكن وحده ، كانت هناك سحالي خضراء زاهية اللون ، لها جلد مبرقش تخشخش تحت الأوراق ، لم ينجح أحد في اصطياد سحلية باستثناء لطفي الذي

ادخر كل جهده للبحث عن كل جحر تحت أعمدة الأسلاك الشائكة ، فيمد يده يتحسس الممرات الخالية ، وتروح أصابعه تبحث هنا وهناك حتى نجح في تحديد مداخل ومخارج عدة جحور ، وفي كل مرة توشك خطته العدوانية على النجاح ، وتفر السحلية بأعجوبة مستخدمة وسائل الهرب المذهلة . فهي ملساء ، خادعة ، تعرف كيف يمكنها أن تراوغ .

في المرة الوحيدة التي نجح فيها لطفي فرو في غزو مملكة السحالي كان باستخدام " ضلع الهايك " ، إذ ألقاه ، وقبض على الجسد المستطيل الذي كنا نرى نبضه من تحت التيل المموه .

أحكم لطفي الغطاء على صيده الثمين ، وأقسم أن الدور قادم على العناكب وهذه حكايتها حكاية .

العناكب في هذه الصحراء ليست من الفصيلة الهزيلة التي تصنع خيوطها الترابية في الأسقف العالية ، وبين الجدران ، وتجبن إذا ما شعرت بخطورة إنسان .

إنها عناكب تصلح لخيام العساكر ، بل أن لونها الباهت الضارب إلى الصفرة مع حجمها الكبير نسبياً ، وحركتها السريعة جعلتنا لا نطاردها ، إذ ليس ثمة ضرر من وجودها في " الأخصائي "، بل صرنا نتقبل وجودها مثلما نتقبل وجود فصائل الكلاب التي باتت أسمن ، ولا تقبل إلا على الثمين من الطعام .

كلاب الأخصائي ليست هزيلة مثلما كان الحال في الأساس ، ولا يوجد لها مواعيد ثابته تأتي فيها مثل موعد صرف التعيين . كأنها أدركت أن هؤلاء العساكر في بحبوحة من العيش ، وهو أمر نسبي ، لذلك كانت تتكاسل وهي تأتي فرادى ، فإذا ما قذفت بعظم من فخذ الضاني ، فهي تتلكأ ولا تعدو ، بل تقدم ساقاً وتؤخر ساقاً .

ولقد رأى لطفي فرو هذا التكبر فاغتاظ للغاية ، وقف على طول السلك الشائك ، وصرخ فينا أن فتفوتة الخبز حرام في هذه الكلاب التي تتبطر على النعمة ، ويتتمردون .

ونكاية فيهم كان يقف بالمرصاد لزملائه الذين اعتادوا إلقاء التعيين الزائد بالقرب من تجمعاتهم ، فيتناوله بيده ، ويضعه في سلال المهملات بلونها الزيتي .

جاعت الكلاب ، وراحت تنبح ، وتتجمع في حشود لم نكن نراها من قبل . وقد أعد لطفي فرو نقطة مراقبة متحركة لإنجاح مخططه ، حتى أن قائد الكتيبة استفسر عن استمرار هذا النباح المزعج لعدة أيام ، دون أن يخبره أي شاويش بما يفعله العسكري الذي يحبس " حرامي الحلة " لأيام ، ثم يطلقه ، فإذا به يتحرك كرجال قد أصابهم الهرم بصعوبة بالغة ، بعد ما كانوا يزحفون في سرعة فائقة .

أمر خطير أفشل خطة لطفي فرو ، فبعد أن عمت المجاعة جماعة الكلاب ، لم نشعر إلا بهجوم شامل وقت توزيع تعيين الغذاء . لقد تسللت جموعهم زرافات ووحداناً ، ولم يتجاوزوا حد الأدب ، لقد راحت تنبح في توسل ، وتهز أذنابها في إلحاح منكسر ، بينما فرو ينظر إليها بوجه محتقن .

لم يجد العساكر بد من إلقاء بعض ما معهم من جراية ويمك ، وقطع العظام الخالية من اللحم ، خارج السور لتعود الأمور إلى نصابها ، ويفشل مخطط لطفي فرو ، الذي رأى الواقعة فصرخ في وجوههم : أيوه كده يا أولاد الكلب .

وجلست الأطقم والجماعات تتناول طعامها ، وهو يتوعد الكلاب بيوم مر ، ولم يحدث هذا ، فقد انتهت مدة الفرقة على خير . وقبل أن نغادر المكان وقفنا نودع الكلاب التي كانت تحاول التمسح في أقدامنا بالرغم من السلك الفاصل .

خنـــافـــــــس

تتعلق العناكب في حركاتها السريعة بخيوطها الترابية ، وتعدو الفئران من حفرة إلى أخرى بحذر محسوب ، أما تلك فإنني أشعر معها بالبؤس وقلة الحيلة .

إنها الخنفساء . لا مثيل لبطئها ، وسيرها في مناطق مكشوفة دون أي حماية أو غطاء . لها خشخشة حالما تحتك بأوراق الشجر الصفراء المتساقطة . وللونها الأسود لمعان غريب ، سرعان ما ينطفئ خلال تسرسب الرمال فوق هيكلها البيضاوي الخفيف .

لا يخشى العساكر الخنافس . يتركون للبيادات مهمة السحق ، كان ذلك في البداية ، خوفاً من دخول الملاجئ ، فلما ظهر أنها تحرص حرصاً بالغاً على أن تعيش في أماكن معزولة ، بعيداً عن البشر ، قلت عمليات الإبادة . ومضت الخنافس في سيرها البطيء ، المطمئن ، الدؤوب .

حنفي وحده الذي كان يناصبها العداء ، خاصة في " الأساس " لأن منظرها يثير تقززه ، فكان يترصد صفوفها ، ويروح يدهسها ، ونحن نسمع الصوت الخشن للانتهاك ، حيث تتوالى طقطقات خفيفة ، يمكننا أن نحصي بها عدد الضحايا.

وحنفي لا يخفي حنقه من اليوم الأسود الذي أتى به إلى هذا المكان ، فقد رفع في داخله راية قاتمة سوداء ، وظل يلعن الظروف ، وكلما رأى تلك الكائنات تسير في اطمئنانها الواثق يشتد غضبه ، ويعبر عن نفاذ صبره بأن يدهسها دهساً بلا هوادة .

اليوم ، وفي راحة الغذاء ، خرج العسكري حاتم ليأتي بالتعيين ، حتى لا يتأخر عن الصرف ، وضع قدميه في أقرب حذاء ميري ، واندفع إلى الطابور ، حيث أعطى تمام السرية ، وشعر بشيء يلعب في إصبعه .

لم يعر الأمر اهتماماً ، ركز كل تفكيره في أن يحصل على الجراية كاملة ، وقطع لحم يمكن أن يقسمها بالطريقة الشائعة ، التي تعتمد على ميزان حساس باليد ، وداخل الأصابع المدربة على إشاعة العدل في " الزفر " واليمك !

كنا قد خلعنا الأفرولات الكاكية ، وجلسنا بملابسنا الداخلية، نستروح شيئاً من النسيم الذي يهب هبات واهنة ، متقطعة .

وأتى العسكري حاتم حاملاً التعيين ، فقمنا نساعده ، وقبل أن نهب من مكاننا ، وجدناه يضع الأروانات جانباً ، ويخلع البيادة ، ويقلبها ، فتخرج خنفساء لعينة ، تمضي في طريقها ، وعليها أن تكمل ما بدأته .

كان يمكن أن ينتهي الأمر بهذه البساطة ، ولكن الله له حكمة في إعطاء بعض الرجال عقول العصافير . ففي لمح البصر أسرع حنفي إلى الملجأ ، ليحضر فردة بيادته ، ويسحق بها الكائن الذي لا يطيق رؤيته .

كان منظراً مقززاً لكل من رآه ، خاصة وأن العسكري حنفي في هجمته الشرسة على الكائنات الشبيهة ممن صادفها حظ عاثر بالمرور في المنطقة ، قد اصطدمت قدمه بأروانة اليمك ، فأطاح بها ، وانسكب التعيين الشهي ، واختلط الإدام بالرمل .

وكأن في صدورنا بركان ، كان عليه أن ينفجر في التو ، فقد هجمنا على ذلك العسكري المعتوه ، ورحنا نركله بأقدامنا ، ونصفعه بأيدينا ، وهو يصيح بنا أن نتركه .

كان يبدو متكوماً بشكله المذري ، يخفي وجهه بيديه ، وكل منا يكاد يبكي على الطعام الضائع ، فليس معنا نقود لنشتري من " الكانتين " ما نأكله .

تصاعد البخار ، وصعد الدم إلى يافوخ الجميع ، وهم ينعتون العسكري حنفي بأبشع الصفات ، وتراءى لنا في تلك اللحظة أشبه بالخنفساء التي تتعرض لمكائد الدهس ، ورغم أن العسكري حاتماً ، أسرع بإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، فحمل الجراية ، وما تبقى في قعر أروانة اليمك من بقايا الطبخة السوداء ، فقد كنت أشعر بنفس صوت الطقطقة التي كانت تصدر من حشرة الخنفساء .

حين انفثأ الغضب ، كانت عودتنا بظهور محنية إلى الملجأ ، وكان رزق الذي فرد مشمعه وأحاطه بقطع الحجارة يجلس متحسراً ، واضعاً رأسه بين كفيه .

رأى حنفي يعود هو الآخر مخذولاً ، وحامد يعصر ذهنه في كيفية توزيع الطعام بلا يمك .

هبط خاطر مفاجئ على رأس رزق ، الذي صعد إلى سريره ، وأخذ هيئة الخطيب :

يا معشر السرية . إنها أيام قحط ، فمن لم يجد يمك ، فعليه بالجراية ، يفرجها المولى من عنده .

ضج المكان بالضحك ، ورضى العساكر بالغموس القليل ، وابتهجت نفوسهم لأن قطع الباذنجان القليلة المتبقية كانت أشهى من أي طعام . أكلوا ، وقبلوا أيديهم ظهراً لبطن ، وقالوا جميعاً قبل رفع المشمع عن الأرض : سفرة دائمة !

شـــربة مـــــــاء

تعددت الأسباب ، والموت واحد . فكل ابن أنثى وان طالت سلامته . . يوماً على آلة حدباء محمول . كلام صحيح ، وهو بيت شهير لشاعر مدح الرسول ، واعتذر بأدب عما سلف .

لكن ما حدث للعسكري بطرس شيء تعجز عن فهمه الألباب . خاصة وأن هذا العسكري البدين صامت ، لا يتكلم إلا فيما ندر ، وحديثه أقرب إلى الهمس . لا تسمع منه سوى : حاضر يا أفندم . . تمام يا أومباشى . . أوامرك يا حضرة الصول . وهو برغم بدانته المفرطة إلا أن عضلاته منتفخة ، فهو حريص على أن تبدو مفتولة ، وصدره المتضخم المكسو بالشعر يؤكد لك أن نظرية دارون في محلها .

إنه مهذب ، صامت ، محبوب من الجميع لأدبه ، لكن إياك أن تنبشه ، وتثير غضبه ، فما يحدث سيجعل سيرتك في القشلاق عبرة وعظة .

وما حدث في السادسة والنصف جرى بنفس التسلسل الذي سأذكره حالاً . إذ كنت قد خرجت في نوبة " البرينجي " وناديت حكمدارية الجماعات كي يسرعوا بتسلم تعيين العشاء ، وهو عبارة عن " مكرونة " وقطع من الجبن المطبوخ .

وكعادة أفراد كل جماعة ، رأوا أن المسألة لا تحتاج إلى إعادة تقسيم ، فباستثناء عساكر الخدمة الذين سيضعون نصيبهم في أروانة الفرد ، يمكنهم تناول الطعام سوياً . ولم لا ، وفي اللمة بركة ، وهناك قلة قناوي أحضرها رزق من الطالبية ، وفوقها طبقة من الخيش لزوم التبريد .

أسرع كل عسكري بإحضار ملعقته ، وبقبضة يده ضرب العسكري حاتم البصلة ففدغها ، وامتدت الأيدي للحصول على شريحة صغيرة .

وبالتعبير العسكري " بدأ الضرب " ، أي تناول وجبة العشاء ، وامتدت يد بطرس بالمعلقة ، يغرف ، ويحدف المكرونة في فمه ، بدون مضغ ، وهو يسابق الزمن ، لكن لا أحد يعترض ، فالتعيين يكفي ويفيض . ربما هي ست أو سبع ملاعق . وإذ ببطرس ، يفز واقفاً ، وقد جحظت عيناه ، وتقلصت ملامح وجهه ، وراح ينتفض كالمخنوق ، وأسرعت يد رزق لتناوله القلة . فأمالها سريعاً ، وتجرع بعض الماء الذي وقف في البلعوم ، وراح بطرس ينتفض دون أن يتمكن من الكلام، وأسرح حنفي وراح يخبطه خبطات متتالية خلف ظهره دون جدوى .

أزرق وجه بطرس ، وغامت الدنيا في نظره ، ورأيت أن أترك مكان خدمتي وأندفع بكل ما أملك من قوة ، فأدفع بأصابعي في حلقوم الرجل ، وهنا رأيت نافورة تخرج من فمه . ويطلع صوته محشرجاً ، ويرتمي على الأرض وهو يأخذ شهيقه ، ويخرج زفيره في صعوبة بالغة .

التففنا حوله ، نمسح عرقه الذي تكثف على جبهته ، ونربت على كتفيه في حنان . كنا نحبه ، وكأنه قادم من عالم الموتى ، خرج صوته متقطعاً : كنت سأموت . قال أغلبنا : الحمد لله . ربك كريم . لقد كُتب لك عمر جديد .

حينئذ ، استرجعت دعاء أمي على من ظلمها بأن يقف الماء في " زوره " ، و" الزور " هو التعبير الشعبي للبلعوم . قلت في سري : الرجل كاد يذهب في شربة ماء . . هذا ما رأيته بعيني .

وإثر اللمة ، جاء صول من " الحملة " ، وسأل عما حدث ، وضرب بطرس على صدره ، وقال : أحمد الله ، غيرك راح فيها لما اعترضت حبات ترمس مجرى الهواء في الحلق .

كان مازال غير مصدق أنه حي يرزق ، راح يتلفت حوله يمسح بعينيه المكان . وقال إنه المخطئ ، وعليه أن يمضغ الطعام مثلما درس في كتاب العلوم ، وأكد لنا أن بلع التعيين كاد يؤدي به إلى التهلكة .

في العاشرة بدأت نوبات " الكينجي " ، وعدت إلى الملجأ . كان بطرس – الذي كُتب له عمر جديد – يجلس في صدر الحلقة ، على جركن بلاستيك مقلوب . والجميع قد أعد احتفالاً بنجاته .

تأملته ، وأنا مجهد بعد وقوف أربع ساعات على ساقين ضامرتين ، ورأيت في عينيه لمحة وفاء ، تغشيها سحابة حزن عابرة .

أفسح لي مكاناً إلى جواره مد يده بسيجارة ، وكان يعرف أنني لا أدخن ، شكرته وأخبرته أنني متحير لما حدث .

لكزني في صدري بمودة ، وهمس في أذني : تأتي على أهون سبب ! ثم جذب يدي ، وخاصرني في رقصة مجنونة مع توقيع صاخب على الأكف ، فقد كان بطرس فرحاً أنه لم يذهب في شربة ماء !

مـــــــــرآة

لا وقت للزينة . بالتأكيد هذا شيء يعرفه كل من انخرط في الجندية ، ولاسيما " الأخصائي " . الخشونة هنا تشمل الأشياء جميعها .

الطعام ، والاغتسال ، الصحو ، النعاس ، فترات الراحة ، نوبات الخدمة الليلية .

غير مسموح بمسح الشعر بأي نوع من الفازلين أو الكريمات . وحصولك على " مرآة " هو أمر أقرب إلى المعجزة ، فهذا ممنوع أيضاً . وتتم حلاقة الذقن بالتقريب ، وعليك أن تمرر ظهر الكف على الخدين لتكشف مدى النعومة ، وهل ثمة شعيرات نافرة من عدمه ؟!

العسكري حاتم عيناه تدمعان ، مليئتان بالقهر ، وجهه محتقن ضارب إلى الحمرة القانية ، فقد كُسرت مرآته صباح السبت وعليه أن يتدبر أمره .

قال لنا مساء الجمعة أنه قابل حبيبته في المكان المعهود ، ودخل معها السينما بتذكرتين ، دس يده في جيب سترته وأخرج الكعبين ، فصدقناه كلنا . وفي اختبار كشف الكذب أجلسه رزق على حافة السرير ، وطلب منه أن يحكي قصة الفيلم الأفرنجي .

حبسنا أنفاسنا ، ولم يرتبك حاتم ، بل غمز بعينه اليسرى وهز رأسه هزات الواثق بنفسه . وعلمنا – نحن البلهاء من العساكر المستجدين – أن السينما بشريطها الفضي الساحر لم يخترعها أصحابها لشئون الفرجة فقط ، فهناك ما هو أهم وأخطر .

وقبل أن يحتج رزق على هذا الهروب ، أزاح الفوطة الميري التي تخفي الضوء ، وراح يشرح لنا بتؤدة : على مقعدين متجاورين جلسنا ، أمسكت بيدها ، وأراحت رأسها على صدري ، كانت يداها توشكان على ملامسة عنقي حين انقطع الشريط ، وأضيئت الأنوار فاعتدلنا .

كان الفضول قد أخذ منا كل ما أخذ ، واقترح حامد أن نجهز دور شاي ، بشرط أن يترك الشريط مقطوعاً حتى ينتهي . نظرنا إلى العسكري حاتم الاسماعيلاوي الدحلاب ، وقلت في سري : هذا الولد فشار ، وسوف أكشفه .

عندما تناول كل منا كوب الشاي ، أخفى حامد " وابور السبرتو " في المخبأ المصنوع ببراعة ، تحت قائمي السرير الخلفيين .

قلنا نستعيد الموقف : وانطفأ النور ثانية .

رد العسكري حاتم وهو يلهث : كانت ثمة معركة حامية بين عصابة المافيا ، ورجال الشرطة ، وحين احتدم الصراع، وانطلقت الرصاصات من هنا وهناك . فعلتها .

استوضحه رزق ليضع النقط فوق الحروف : ما الذي فعلته بالضبط ؟

ضحك حاتم وهو يسخر من رزق ، ويستصغرنا بنظرته التي حملت لنا احتقاراً مضمراً : ألا تعرفون يا عيال ؟!

وتركناه يروي الواقعة كما يريد : ضممتها إليّ ، ثم قبلتها قبلة طويلة ، كانت شفتاها حلوتين كالعقيق .

قاطعته : الياقوت أقرب من العقيق .

رد عليّ بعنجهية : اصمت يا جاهل .

واصل حكايته التي كنا نستمع إليها غير مصدقين : فتحت عينيّ على أعضاء عصابة المافيا مضرجين في دمائهم . ولما جاء وقت الدفن ، وسارت النعوش باتجاه القبور المفتوحة ، كانت فرصة أن تمتد يدي إلى أزرار البلوزة ، لأفكها بهدوء ، واقتنص النهدين بقبضة يد لا تعرف المهادنة .

ضربه رزق على ركبيته المفرودة ، وصاح به : كاذب ؛ لأن من يجاورونك لن يتركوك في حالك .

كان رده جاهزاً : كلهم كانوا يفعلون مثلي ، وأكثر .

ومع " أكثر " هذه انفتحت حكايات ، وتعددت الروايات ، ونفرت عروق العساكر المحرومين من البنات .

وأرانا بعد أن هدأ انفعالنا صورة جميلة ، قلنا في نفس واحد : سعاد حسني .

شخر لنا ونخر : أعرف . لكن خذوها تميمة للحب .

مد يده وأخرج المرآة ، ورأى كل منا وجهه وقد صعد الدم فيه ، قلنا في تأنيب ولوم : هي ضرورية لنا جميعاً .

رد حامد ، والغضب يعصف به : قالوا ممنوع .

عاجله رزق بتحدٍ حاسم : مثل وابور السبرتو ، والطعام الملكي ، ومجلة الشبكة ، وكل الممنوعات الأخرى التي تعرفونها ، ندفنها في المخبأ السري !

هززنا رؤوسنا موافقين . خرج عساكر الخدمة لنوبة البرينجي ، وحاول الباقين النوم .

صباح اليوم التالي ، في السادسة ، أوقبلها بقليل ، قمنا لطابور الرياضة ، ومن المخبأ أخرج العسكري حاتم المرآة ، ونفض الغبار الخفيف عن سطحها المصقول ، أسندها على الحافة الحديدية لسريره .

في قيام ياسين المضطرب من نومه ، وقعت المرآة ، وانكسرت ، تناثرت شظايا هنا ، وهناك .

دعك عينيه المحمرتين ، أزاح الهم الجاثم في المكان : سنحضر غيرها الجمعة القادمة .

قالها بصوت منكسر ، وكان الجَمع قد أوشك على الاكتمال ، ولم يفكر واحد منا أن يلمم الشظايا التي راحت تعكس ضوء الشمس الوليد باستماتة !

زيـــــــارة

أخذني سراج القرانفلي إلى مستشفى عسكري كبير في إحدى ضواحي القاهرة . كان ذلك صبح الجمعة ، والشمس تخترق أشجار الكافور الهائلة وتسقط كقطع من الذهب . واجهات المباني مغسولة بالماء ، وأشجار الزينة مقصوصة بعناية بالغة . هناك سلك على شبابيك الغرف ، وممرضات يرحن ويجئن ، رأيناهن من وراء السلك .

كانت أجازة 24 ساعة ، رأيت أن أقضيها في القشلاق ، لكنه أخذني معه ، ورفض إلحاح حاتم الاسماعلاوي الدحلاب في أن يشاركنا الزيارة .

كان بأفروله الكاكي ، وكنت . نسير في الطرقة الطويلة المغسولة " بالفنيك " ، وبطني تزوم وتكركب من الجوع . لا يمكنني أن أخبره أنني لا أمتلك مليماً واحداً . فآخر قروش تبقت معي ، اشتريت بها ماكينة حلاقة ، وشفرة . وتأكدت أنني سأحلها بالصوم فهو وجاء ، وعليّ به .

كان الأطباء يرتدون معاطفهم البيضاء ، وفوقها رتب ، الواحدة منها تحرق معسكر ! صقور ، ونجوم ، وسيوف تتقاطع مع عصى . ونحن نمضي في بلاهتنا بلا أي إشارة ، أو علامة مميزة .

إنه يعرف هدفه ، وأتبعه صامتاً ، وكلما تأخرت جذبني من يدي وصاح في وجهي : أسرع يا مجنون .

كنت أفتح عينيّ على باقات زهر ، أشكال وألوان ، في سلال خوصية ، تحزمها أشرطة الستان الملونة . تمتمت في سري ، وأنا أحدق في جمال الغرف : ما أحلاه من مكان !

فجأة استوقفنا رجل الأمن قبل الصعود إلى الأدوار العليا : هل هناك بطاقة زيارة ؟

هز سراج رأسه نفياً ، وأخبره أن عمه في الدور الثالث ، بالغرفة (310) .

لكن رجل الأمن هز يده معتذراً : إنها أوامر . فلما طلب منه مهاتفة العم ، رفض في إصرار ، ودفعنا بيديه إلى الخارج ، وهو يكرر كلماته كالملسوع : ممنوع . . ممنوع !

صبغ الخجل وجنتيه ، وراح يسب ويلعن العقول المتحجرة . ثم علت صرخاته : عمي هذا . . الزيارة خسارة فيه !

تصنعت الغضب ، لإهدار وقتنا في زيارة فاشلة لم تتم ، واقترحت عليه أن نذهب إلى "البوطسي" ، فهو الوحيد الذي أعرف عنوانه في خان الخليلي . تشكك في جدية الزيارة . بان ذلك على تقاطيع وجهه ، واقترح أن أذهب معه إلى فيلا العائلة في مدينة نصر .

هززت رأسي ، وكلماتي تتضح بالسخرية : من الجائز أن نسمع ممنوع مرة أخرى !

لم يكررها ، وتبعني كالمشدوه . اقترضت منه نصف جنيه ، فشعرت بالأمان . رحنا نقفز سلالم الأتوبيس المسرعة وهي تبطئ سيرها في منحنيات الطرق ، ونشعلق أجسادنا في فراغ الأبواب الخلفية المفتوحة على مصراعيها .

كنت قد حصلت على عنوان البوطسي ، أيام الأساس ، ولم أزره مرة واحدة . وكانت بيننا صداقة صامتة . نشترك في أمرين لا ثالث لهما : قراءة القصص ، والكتابة .

لم أكن أعرف عنه سوى أنه دودة كتب ، صامت أغلب الوقت ، له عينان حزينتان ، وقلب كسير .

تهنا بين الحوانيت ، وفي يدي قطعة الورق تحمل العنوان ، وقد انمحت بعض الحروف ، لكن أغلب الكلمات واضحة .

حولنا النراجيل النحاسية ، أطباق الصدف ، تمائم أثرية مقلدة ، وإلى جوارها خراطيش الملوك بالرسم الهيروغليفي .

سألنا ، وتعبنا ، فضحك سراج ، وقد خرج من إحراج المشوار الخائب : لنعتبره طابور ذنب .

صعدنا عدة درجات ، وأفضى الطريق إلى عتبة رخامية عتيقة ، أشار لنا رجل معمم بيده على المكان : عائلة البوطسي .

وكان بجوار قبة خضراء ، ولوحات حلوة في المدخل . أحذية مطبوعة بالجعران المقدس ، وقمصان عليها صورة الطائر حورس ، ثم دقات لصنايعية في الداخل يكفتون الفضة في استدارة الأطباق النحاسية . قال سراج بصوت خافت سمعته بصعوبة : لن نجده . . قلت محتجاً : سيكون الفشل الثاني على أية حال ؟!

اتجهت إلى مدخل الدكان ، وألقيت نظرة على الداخل . كان الضوء شحيحاً ، وأكثر من أربعة أفراد منكبون على عملهم في هدوء لا تقطعه إلا هذه الطرقات المتتابعة .

ثمة لوح زجاجي شفاف ، طرقته بإصبعي ، ودخلت ملقياً السلام ،، ومن خلفي سراج الذي تقطعت أنفاسه من اللف والدوران .

قبل أن أسأل عن البوسطي ، لمحته في طرف قصى ، يطرق بشاكوش صغير ، وقطعة حديد معقوفة طبقه الفضي ، وقد استولى عليه حرص بالغ لتجويد الصنعة ، فلم يشعر بنا .

تسحبت على أطراف بيادتي ، واقتربت منه ، رأيت إيزيس تحمل طفلها الإلهي (حورس) ، وفي الفضاء الروح (با) تحلق في صورة طائر ، أما القرين (كا) فيتمدد في مقدمة اللوحة .

كان الطريق يرج داخلي ، ويد سراج تلكزني أن أتكلم ، أن ألقي السلام على صديقنا المشترك : العسكري بوسطي .

هو الذي رآنا ، حملق فينا كالمأخوذ ، رفع قلمه الحديدي المعقوف عن المجرى . وقام يحتضننا ، رأيت الفوطة على صدره مثلما يفعل الأسطوات في مدينتنا .

قال والفرحة ترجه : حمداً لله على سلامتكم .

وانطلق ليحضر لنا أكواب التمر هندي الساقعة . جلس إلى جوارنا على مقاعد خوصية واطئة : خطوة عزيزة .

كبر العسكري بوطسي في نظري ، ولمحت (عنخ) رمز الحياة الأبدية خلف رأسه مباشرة .

خرج صوتي متقطعاً : قلنا أن نزورك . هل نعطلك ؟

ربت على كتفي وأقسم أن يكون غذاؤنا عنده .

اعتذر سراج ، فقطبت جبيني وهددته : هل أخبره بزيارة الصباح ؟

رفع يده مستسلماً . وبعد شرب المثلج ، انكب البوطسي على عمله ، بعد أن أشعل عودين من بخور الجاوي .

فشعرت أنني في معبد فرعوني داخله بعض الأسطوات ، وثلاثة عساكر من الأخصائي !!!

شمـــال . . يمـــــين

كان الولد عبد المعطي ضاحي مصاباً بالتهاب اللوزتين منذ زمن طويل ، لهذا كانت تتناوبه الحمى في فترات متباعدة ، وما يلبث أن يخف ويشفى .

لكن بطرس رأى أن يغتنم الفرصة هذه المرة فيصحبه إلى المستشفى ، كي يمتع البصر برؤية البنات الجميلات أثناء العرض على الطبيب الميري .

خلع عبد المعطي سترته بعد أن تمدد على السرير الحديدي ذي العجل ، والملاصق للحائط الأبيض بياض اللبن الحليب. وضع الطبيب سماعته على الجزء الأيسر من الصدر ، ملاصقاً الثدي الضامر بحلمته الممصوصة . ونقر بأصبعه على العظام .

كح بطرس وهو يتابع أصابع الطبيب المدربة ، وقال في سره : الموضوع دخل في الجد .

أنام الطبيب مريضه على بطنه ، وطلب منه أن يأخذ وضع القرفصاء ، ثم أمره أن يأخذ شهيقاً طويلاً ثم يخرجه على دفعات وأن يقول : آه .

فعل عبد المعطي كل ما طلبه منه الطبيب ، الذي تعجب من دخوله الخدمة رغم العيب الواضح في أهم مضخة بالصدر : القلب .

كانت الالتهابات المتوالية للوزتين ، بإفرازاتها الصديدية قد أثرت على القلب ، فضاق صمامه . شعر بطرس بالعرق يتفصد على جبين زميله الذي رافقه إلى المستشفى ، وظن الأمر نزهة ، وساعة حظ لا تعوض ، فإذا بها تتقلب غماً .

فقد رأى الطبيب أن يحجز عبد المعطي للفحوص والعرض على الإخصائي الزائر كل ثلاثاء . ووقع على الأورنيك بالحجز . ودفع بالورقة الصغيرة بحجم الكف لبطرس الذي كان عليه أن يعود بمفرده .

قبل أن ينصرف ، مال على أذن زميله : أتريد نقوداً ؟

هز المحتجز رأسه بالإيجاب ، فدس السائل جنيهين في اليد الممدودة ترتجف . وقبل أن يمضي خارج عنبر الحميات ، احتضنه سريعاً ، وشعر بسخونة أطرافه وجبهته .

كان على بطرس أن يمضي ساعتين أو أكثر في شوارع المعادي ، ولم تكن معه نقود كافية ، ولا مزاج رائق للفرجة على خلق الله .

بالصدفة ، وقعت عيناه على البوطسي يمرق من أمام مقهى فقير كان يجلس على أحد مقاعده ، ناداه بصوت عال ، فلم يلتفت . فز من مجلسه ، وراح يعدو حتى لحق به : يابوطسي . . عبد المعطي تم حجزه في المستشفى .

التفت الآخر نحوه . كان له نفس الوجه ، لكن العينين المحملقتين ليست بنفس الصفاء الذي يعرفه .

لا يعرف لماذا أخرج من جيب بنطاله علبة سجائره ، وأعطاه واحدة ، ربما ظن أنها حيلة منه للحصول على شيء .

لكنه ليس شحاذاً ، ولم يمد يده يوماً مهماً كان الأمر صعباً .

دعك بيده السيجارة ، فانفرطت حبات التبغ على الأرض الأسفلتية . وعاد إلى مقعده الواطئ ، وأدار صاحب المقهى مؤشر الراديو على محطة تذيع أغنية يحبها .

كان عبد الوهاب يعدل طربوشه – هكذا تصور الأمر – وهو يغني : " يا وابور قولي ، رايح على فين ؟ "

فراح يغني معه ، وخرجت أسراب البنات ضاحكات ، منطلقات وكأنهن لا يعرفن الحزن أبداً .

فكر في أن هؤلاء البنات ،سيتزوجن ، وسينجبن أطفالاً : بنات وبنين ، البنون سيدخلون الجيش ، وبعد عمر طويل ، سيجلسون جلسته .

شارد الذهن ، صامت ، تضيق عيناه بتأمل الفضاء الذي أخذ لوناً رصاصياً . لم يكن عبد المعطي ضاحي صديقه القريب إلى قلبه ، لكن مصادفة ما ، ورغبة في الخروج من القشلاق جعلته يصاحبه إلى المستشفى ، وبدلاً من أن يعود معه ، يعود فقط بقطعة من الورق عليها اسمه ، ورتبته ، ورقمه العسكري .

سيرتاح عبد المعطي ضاحي من " شمال يمين " التي تعصف بالأرواح ، فتثير الضيق لرتابتها في طوابير الصباح .

وقع نظره على البيادة بحجمها الكبير ، بفظاظة دورانها المميت ، وقسوة جلدها . وسأل نفسه : هل كان هو البوطسي حقاً ؟

مد يده لكوب الشاي فأبصر جلده الذي دبغته شمس لا ترحم . ورأى أن العنبر الذي سكن فيه زميله أفضل مائة مرة من خيام وملاجئ القشلاق .

صحيح أن رائحة " اليزول " ما زالت في أنفه ، لكن كل مريض عليه أن يتعود الروائح الجديدة ، والألوان المختلفة ، وشعر بصوت الصول يردد " شمال يمين " ، فهب واقفاً ، كالملدوغ ، وسرعان ما أدرك أن سحابة حزن عابرة هي التي أوقعته في المحذور ، وأرهقت عقله .

فأسراب البنات لا تنقطع عن المرور من أمامه . كلهن فتيات جميلات ، بالشعر المعقوص أو ذيل الحصان ، وكل طراوة الدنيا ، وروعتها تظهر في ابتسامتهن المرحة .

وما لبثت مدرسة الصغار أن فتحت أبوابها ، وحدثت جلبة مع الأقدام الصغيرة المتدافعة التي تسابق العفار ، كأن عصافير ملونة انطلقت من أقفاصها .

شعر بأن الحبس أمر مهين للبشر ، وكاد يبكي وهو يستسلم لصوت غامض يغزو وحدته : " شمال يمين " ، لم يكن هناك مفر من أن ينظر إلى ساعته ، ويدفع بالحساب إلى صاحب المقهى العجوز الذي عاد يفتش في الراديو عن أغنية أخرى . كالمنوم ، جر قدميه في اتجاه المحطة ، تعلق بصره بالسماء التي كانت تجاهد لتتخلص من السحب الرمادية فيخلص لها الأزرق لوناً ورحابة .

" شمال يمين " ، تترى كسوط يعذبه ، ولم يجد بطرس مفراً من أن يصعد إلى الأتوبيس المار بالقشلاق ، ليعود وحده ، كي يواصل مشواره الصعب مع زملاء قدر لهم أن يحملوا في قلوبهم ثقل السماوات الرصاصية !

القســـــم الثالث

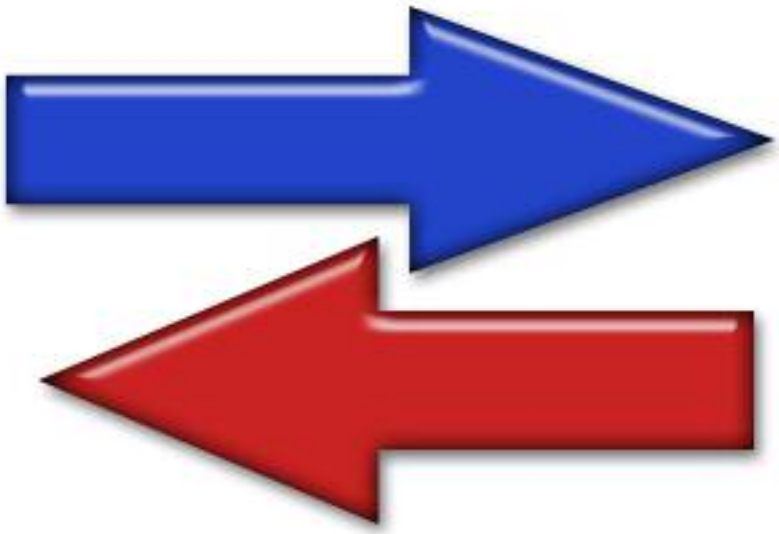

تأملات شاردة عن الجبهة

فـــرد يمـــــام

لا أحد رأى يمامة في الصحراء . لا أحد رآها من قبل أو من بعد في هذا المكان المقطوع الموحش ، المليء بالأحجار المتناثرة دون ترتيب أو نظام ، والعشب القزمي من فصائل الصبار .

هبطت دون سابق إنذار على ماسورة مدفع الـ م / ط ، ما كادت أصابعها الدقيقة تلمس الحديد الساخن حتى طارت من جديد ، راحت تضرب الفضاء القريب بجناحين مجهدين ، ثم سقطت في حفرة الموقع التبادلي لنفس الطراز من المدفع .

يمامة في الموقع ، حادث فريد ، خاصة في ساعة القيلولة حيث يخلد الجميع إلى الراحة ما عدا أفراد النوبتجية .

في ذات اللحظة اندفع العساكر نحو الحفرة ، صنعوا من أجسادهم شبكة ترتطم بها المسكينة في محاولتها المستميتة للفرار . رفرفة الجناحين أسقط ريش ناعم كثير ، بلون أبيض يميل إلى البني . ريش يدور في قلب دوامات الريح المثقلة بذرات الرمل الأصفر الساخن .

نجح العسكري حلمي في القبض على اليمامة ، رحنا نتأملها صامتين وهي تتلفت في حيرة يمنة ويسرة ، وكأنها أدركت الفخ الذي وقعت فيه ، ثم ما لبثت أن استكانت ، وأغلقت الجفنين في استسلام يائس .

كلنا ، رغم مشاركتنا في المطاردة المستحيلة منذ لحظات ، وقعنا في مأزق ، عبر عنه العسكري عبد الحي ياقوت ، وهو يتساءل في مرارة : ماذا سنفعل بها ؟

كانت دوامات الغبار تتصاعد لتحيط بالجمع الذي خرج من الحفرة في اتجاه أرض السرية .

قال حلمي ، وهو يمارس عناده المعروف عنه : هي لي . وأنا صاحب التصرف !

مط الجميع شفتيه ، وتحركت اليمامة حركة يائسة ، فسقط مزيداً من الريش القصير ، وبان الزغب الخفيف حول سمانة القدم فيما صرخ العسكري متولي : إنها عطشى .

أسرعنا إلى الملاجئ في نفس اللحظة وقد أحضر كل منا زمزميته ، وأمالها ، وصب الماء القليل في الغطاء المستدير .

اقترب عبد الحي ياقوت من حلمي ، وراح يمسد شعرها بالماء البارد الذي ملأ به قبضته .

انتفضت اليمامة وقطرات الماء تغمرها ، وتصل إلى منابت الزغب حول عنقها الجميل . وما لبث أن هدأت . أغمضت العينين للحظة ، وكأنها في مرحلة الإفاقة ، راحت تنفض ريشها المبلول ، في انتعاش حقيقي وسط صهد لا يرحم .

حملها ياقوت في حنان بالغ ، فرد المشمع على أرضية الملجأ ، ثم أراحها . صاح حلمي غاضباً : احترس . ستطير .

لكنها استكانت ، وراحت تنفش ريشها ، وتطويه ، في حركات متعاقبة .

سأل العسكري متولي : حد عنده ذرة عويجة ؟

ضربه مرسي الشحط ، أطول أفراد السرية طولاً ، والذي اختفى لقبه الحقيقي وراء اسمه الحركي ، شخط فيه : يا غبي .
جرى إلى ملجأه ، وعاد بقطعة خبز من جراية الصباح ، راح يبللها بحرص زائد ، حتى امتصت الماء ، وانتفشت . قربها من اليمامة التي غمست منقارها فيه ، ثم عافت الطعام .
دخل صبري المنير الملجأ بعد انتهاء نوبته ، قال : إن التعيين في الطريق . لقد رأيت السيارة قادمة على المدق الجيري القديم .
صحنا في نفس واحد : حلو . وقال العسكري حلمي : ممنوع فعل أي شيء إلا بأمري .
سألته : ماذا تقصد ؟
رد بعنجهية : اليمامة ملكي . وأنا الذي أطعمها وأسقيها .
خبطه عبد الحي ياقوت على كتفه ، حتى كاد يسقطه : أصمت يا جاهل . هذه روح . والروح ملك ربنا .
مصمصت الشفاه . كنا جميعاً ، ودون اتفاق بيننا نخشى أن تموت في هذا الهجير . ولم نكن على يقين من صحة ما فعلناه ، حين طاردناها ساعة سقوطها في الموقع .
جاءت العربة تتهادى ، سمعنا صوت الصول الأجش : إحضر للتعيين . رأينا العفار الذي يسبق السيارة ، وقف حكمدارية الجماعات بأروانات السرايا . وسألنا عن التعيين في صوت مجهد ، وعرفنا أن هناك أرز ، ويمك ، وقطع صغيرة من اللحم . أما الفاكهة ، فبيانها كالآتي : كل خمسة أفراد يخصهم حبة واحدة من البرتقال .
تم توزع التعيين بسرعة فائقة ، وتصاعدت الأبخرة الشهية ، وتلمظت الألسنة ، ورطبت الشفاه ، وصنعنا داخل الملجأ حلقة الغداء المعهودة .
كنا جوعى كما لم يحدث لنا من قبل . إلا أن أيدينا لم تمتد لطعام قبل أن نطمئن على غذاء اليمامة . كانت ترقد هادئة كأنها مثلنا في نوبة راحة .
كل يمسد شعرها الناعم الجميل ، فتسري في روحه نسائم منعشة ، وهي من وقت لآخر تفتح العينين الجميلتين لتطمئن على شيء ضائع أو مفقود .
مد العسكري متولي يده ببعض حبيبات الأرز ، لكنها نفرت ، وابتعدت بجسمها . اقترب منها عبد الحي ياقوت ، وراح يصنع بفمه هديلاً عجيباً ، انتبهت للحظة ثم أغمضت عينيها في عزوف واضح عن أي طعام .
صاح العسكري مرسي الشحط : الصول زعفراني في الطريق .
دون أي اتفاق نهضنا جميعاً ، خرجنا من فم الملجأ ، وأيدينا تحيط باليمامة . أطلقناها ، في الجو الصهد اللافح . أطلقناها طارت قليلاً ثم هوت .
صنعنا بأيدينا مراوح ، رحنا نمسح حبات الرمل عن الجسد المنهك ، والعفريت عبد الحي ياقوت . كاد يبكي وهو يهمس في صوت ينضح بالبكاء : بالله عليك طيري .
ثم رشف قطرات من الماء ، وبخ رذاذاً للحظات من فمه الواسع : طيري . . أمانة عليك .

ارتعش الجسد الساخن في أيدينا ، واستجمعت اليمامة قوتها ، نفضت الماء ، وانتفضت ، وحين أطلقها عبد الحي ، طارت هذه المرة طيراناً متواصلاً ، ومضت نحو المدينة البعيدة ، فيما لاحظت دموعاً تترقرق في أعين العساكر الغلابة .

شَـــعْـــــَرة

- العسكري مصيلحي عنده شعرة .
- لا . ما حدث هو مجرد " لُطف " .
- هذا الولد العاقل ، كيف طقت دماغه ؟

هكذا ارتفعت الأصوات وقت الدجى ، فوقفت أهرش رأسي ، لأنني أعرف العسكري توفيق مصيلحي أكثر من غيري .

حكى لي شيئاً عن عائلته الكبيرة في " أبو كبير " ، ومحل الجزارة الواسع الذي يمتلكه أبوه – الحاج أحمد – مع عدة مخازن .

كان أحمر الوجه ، يكاد الدم يتفجر من وجهه البشوش في صحة وعافية . في البداية لم أسترح له ، لفكرة راسخة في ذهني عن الجزارين . فدائماً يكونون قساة القلب ، متبلدي المشاعر . لكن موقفاً صغيراً ، ربما كان عابراً ، مر بنا في إحدى مشاويرنا لإحضار سواتر من قلب الكتيبة ، غيرني تماماً.

كنا ملحقين على سرية الهاون ، وأمرنا الصول درويش أن نسارع باستخراج الغلالات من حفرة الذخيرة ، فلما أنجزنا ما طلب . أشار بيده وكأنه يطرد حشرات بعيداً عنه ، كي نذهب لنحضر سواتر الصلب المقوسة من مركز قيادة الكتيبة على بعد تسعة كيلومترات .

في البداية سرنا صامتين ، نمسح عرقنا في المناديل الميري الكاكي تارة ، وفي أكمام الأفرولات تارة أخرى ، ننفخ بأفواهنا زفيراً حاراً محملاً بالتعب والإرهاق .

فجأة ، ضم أصابع يده اليسرى ، وراح يهزها لأسفل وأعلى في هدوء ولطف . ثم مال على جانب الطريق ليحمل جرواً صغيراً كان يبدو أنه في الأسابيع الأولى بعد مولده .

راح يلهو معه ، وينظر حوله في بحث دؤوب عن شيء لم يخبرني به . ثم ضم شفتيه ، وراح يصدر بفمه صفيراً متقطعاً ، وفي التو قفز كلب كبير ، أسود اللون ، في مفاجأة لي ، وراح ينظر نحو مصيلحي نظرات كلها شك وريبة ، وما لبث أن خفف من نظراته العدائية ، حين لمح يده تتحسس شعر الجرو في حنان فريد . أخذتني المفاجأة حين راح الكلب يتمسح في ساق رفيق رحلتي ، وكأنه يعتذر له عن تسرعه وفهمه الخاطئ .

بعد أن ابتعدنا ، سألته عن علاقته بالكلاب ، رد بعفوية : كل الحيوانات أصحابي ، أعرف كيف أتعامل معهم ، أما البشر فالتعامل معهم صعب صعب .

بعد أن تقوست ظهورنا بالسواتر الصلب حال عودتنا ، توثقت علاقتي به . صرت أعز أصحابه . وانكشفت لي مناطقه الدفينة ، فإذا مصيلحي – الجزار بيده الخشنة – أرق أفراد السرية مشاعراً ، حتى أنني كنت أختار سريره ، لأقرأ خطابات سهير التي ترسلها ، وعلى المظروف الخاتم الأسود المربع بالرقم الكودي ، دون أن أخشى ترقرق عينيّ بالدموع . وهو – وبلمحة ذكاء نادرة – كان يشغل نفسه بتنظيف سلاحه الآلي دون أن يسألني عن سر تلك الدموع .

هل من الممكن لمصيلحي أن يصاب بلوثة جنون ؟ سألت العريف حامد أبو طويلة – وقد غاب عني لقبه الحقيقي – فعرفت أنه خرج من مكتب الملازم يسري ، وجرى في الفناء ، فأحضر حجارة " الدبش " وراح يقذفها نحوه . فلما أمسكوا به راح يغني ويرقص أغنية عبد الحليم " بيع قلبك . . بيع ودك شوف الشاري مين ؟ " ثم يتوقف قليلاً ، ليؤدي التحية العسكرية – كما أُنزلت – ويعود الهتاف باسم الكتيبة ثم يخرج " زرطة " طويلة بذيل ماجن .

صاح الملازم في غضب : ضعوه في الحبس .

فشخر شخرة مدوية ، قبل أن يرفع يده اليمنى بسلام قائد عظيم متبوعة بهزة وسط لا يمكن أن تكون إلا لراقصة محترفة .

في قشلاق الحبس زرت مصيلحي ، قدمت له علبة سجائر ، وقطعتين من الملبن ، ومشط كبريت . نظر إلى الخلاء طويلاً ، زفر وهو يصرخ : أوباش .

قلت له : احترس يا مصيلحي . ولا تمض في الأمر أكثر من هذا .

شملني بنظرة عطف ، وربت على كتفي : أوغاد . قلت لك .

أحمر وجهه أكثر من احمراره العادي . سألته عما حدث ، هز رأسه ، وهو يتلفت حوله : لا شيء . أريد الجاموسة .

قلت له في صدق وأنا أحتضن يديه : خفف عنك . أحك لي .

ظل صامتاً ، وما لبث أن سألني : هل ترضى أن تمسح حذاء إنسان مثلك ؟

قلت له معترضاً : بالطبع لا . لكن عساكر المراسلة يفعلون .

شخر مرة أخرى : لكن أنا لا .

همس في أذني ، وأكد لي بإشارة من أصابعه : أنا رجل .

وضحك في مرارة : شعرة جاءت . ماذا جرى ؟

قلت أنصحه : الجنون يبدأ من لحظة مثل هذه . أن تضرب في طريق تجهله . حيث يحتل اللامعقول مكان المعقول ، وحين يخدش الضحك قشرة الحزن الصلدة . أرجوك لا تضحك . لا ترقص . أبك . أبك في حضوري . لا تخش شيئاً .

دقت قبضة العريف المناوب الباب الصاج : هيا ، يا دفعة ؟!

قلت : هي دقائق .

اندفع مصيلحي يرقص ، وهو يدق على أروانة الفرد الألمونيوم : الجاموسة نامت . والعقارب قامت . ثم خطف كتاب كان بيدي ، وصنع منه بوقاً ، وصاح بصوت جهوري :

حيوا الجاموسة . . هيه . . هيه . . هيه .

أغلق العريف الباب مرة أخرى ، واستمر مصيلحي في جلبته ، حتى ظننت أنه سيغشى عليه . توقف فجأة ، لمحت صدره تحت السترة الكاكي يعلو ويهبط . أجلسته إلى جواري على الأرض الرملية الخشنة : أرجوك يا مصيلحي . تماسك . كلها ثلاثة أعوام ، وتخرج .

فوجئت به يهدأ ، ويتملى وجهي . في تلك اللحظة تذكرت أنه لا بد من كلام يقال . ولا أعرف كيف أوجه دفة الحديث .

سألته : كان من الممكن أن ترفض بهدوء .

رد بعصبية : أراده أمراً صريحاً .
هززت رأسي : من الممكن أن تتظلم . حاول ؟!
أدهشني رده : فكرت في هذا . وأردت أن يكون ردي مدوياً .
قلت له بإخلاص : عرفت أنك ستذهب بأورنيك العيادة إلى المستشفى العسكري .
رد في ضيق : لا يهم . سأستمر في جنوني .
طاف بذهني خاطر عجيب ، سألته : هل كنت تذبح الماشية بيدك ؟
ثبت عينيه في عيني : مصيلحي لا يذبح أحداً . أبي الحاج أحمد حاول معي كثيراً ولم تفلح محاولاته .
دق العريف الباب بغلظة هذه المرة ، شملني بنظرة ماكرة : اطلع بالمطلوب .
مددت يدي بسيجارتين . وبجرأة متناهية خطف علبة الكبريت . وضحك وهو يغمر بعينه اليسرى : صاحبك شعرته عالية .
قلت لمصيلحي : لا تخف ، سأذهب معك وقت العرض على المستشفى العسكري . سأتحدث مع صول السرية الطبية في الأمر .
في هذه المرة علا صوت مصيلحي – الجزار في بطاقته الشخصية – بأغنية جميلة لعبد الحليم حافظ :
" صافيني مرة ، وجافيني مرة "
ضحكت وأنا أتركه حليق الرأس ، وبدون طاقيته الميري غمز بعينه : مع السلامة !
علمت بعد ذلك أن المستشفى العسكري قد احتجز مصيلحي للعرض على طبيب زائر متخصص في هذا النوع من الأمراض العصبية . وقد خضع لفحص سريري دقيق، وأثبتت التقارير الطبية أنه قد تعرض لضغط نفسي عنيف أدى لاختلال بعض وظائف المخ .
وحينما عاد إلى السرية ، سُمح له بارتداء حذاء خفيف ومعافاة من الطوابير ، لمدة شهر . لكن لا أحد صار يمكنه إيقافه عن الغناء ، " والزراط " بفمه وقتما شاء ، حيث أن صوراً من التقارير الطبية ، محفوظة بترتيب دقيق داخل حافظته الجلدية .

عربـــون محـــــبة

راحت الشاه تمسح خطمها في الحشائش الكثيفة الملاصقة لبئر الماء الوحيد في المنطقة . كانت خيام البدو متناثرة هنا ، وهناك ، والفتيات يأتين إلى البئر لملء أوعيتهن البلاستيكية ، وجرارهن المميزة .

وأصبح رزق هو المندوب السامي لسريتنا لهؤلاء البدو ، لقد بدأت المقايضة ببساطة متناهية ، فالجراية الزائدة يمكن مبادلتها بالدحروج ، وهو اسم بيض الدجاج ، وغير ذلك عيب .

كذلك فإن قطع الصابون ، وبالأخص صابون الرائحة يثمن غالياً ، ويمكن الحصول في مقابله على " قسط " لبن كامل.

البدو في حالهم ، ونحن أيضاً – باستثناء رزق – في حالنا ، شركاء في الماء والكلأ ، ومساحات الأصفر العنيد .

نقطة الدفرسوار على بعد ثلاثة كيلو مترات ، والحسرة تنهش الصدور ، حيث لم نتكيف بعد مع المكان . هو يختلف تماماً عن الأساس ، والأخصائي ، تكفي أشجار المانجو بثمارها اللذيذة التي تخضع لقانون نيوتن في الجاذبية الأرضية .

لكن " رضا " لها جاذبيتها الخاصة وقد خطفت قلب رزق ، لذلك يصر على أن يملأ الجراكن بمفرده ، ويتحمل السير لأكثر من كيلو متر ، والثقل على كتفه ، من أجل نظرة واحدة ، تظللها رموش تخطف القلب .

لقد حظى بثقتهم تماماً ، فقد كان هاشا باشا في المقايضة ، لا يهمه الخسارة البسيطة من أجل بناء جسور ثقة مع العشيرة .

وكلما رأت أحدنا خفضت نظراتها ، وأسدلت رموشها ، ولم تنبس بكلمة .

وحده رزق هو الذي تحدث معها ، كانت تأنف من مخاطبة العساكر ، لأنهم لا يؤتمنون . وقد أكد لها رزق ذلك ، وراح يهز رأسه هزات متتالية من أعلى لأسفل : فاسدون . . دون . .

كان التعيين اليوم يحوي مكرونة مقصوصة لم تنضج بعد ، حتى صلصة الطماطم لا يكاد المرء يعثر لها على لون أو رائحة ، لذلك استقر الرأي على مقايضة التعيين كله . وغاب رزق ، وتوجسنا شراً أن تكون المهمة قد فشلت .

لذلك رأينا أن نرسل من يستعجله ، فقد مر الوقت ، وزقزقت عصافير بطوننا ، وكنا قد أشعلنا العبوات المساعدة بعد أن أخفيناها فترة تحت الحشائش اليابسة ، ووضعنا أرواني الجماعة وقد امتلأت بالماء ، ليغلي ، انتظاراً لعودة رزق بالدحروج .

ذهب مفيد يستطلع الأمر ، وتسلل إلى مضارب العشيرة ، ربما تكون هناك حالة من الرفض لطعام لا يستسغيه البدو . هكذا ظننا الأمر . وعشنا في قلق متزايد غزاه الجوع الكافر .

وعاد مفيد بعد دقائق بوجه محتقن ، سألناه : خير .

أبو طويلة ضرب الأرض بقدميه : ماذا حدث له ؟

ضحك في مرارة : إنه في مأدبة حافلة . يجلس مع النسوة يقضم البصل الأخضر ، وينهش صدر دجاجة مطهية .

تلفتنا حولنا ، وكلنا حيرة : والدحروج ؟

امتقع وجه مفيد أكثر وهو يعترف : اقتربت منه ، وسألته عن طعامنا .

سألناه في صوت واحد هده الجوع : وماذا قال ؟

مضغ مفيد حسرته : أشاح لي بيده . وهو يواصل التهام الفصوص البيضاء بشهية ونهم . وقال :

اذهب ، سأحضر وراءك .

سأله أبو طويلة : ألم يقل لك تفضل ؟!

سرى الغيظ في صوته المبحوح : والله ما قالها . هو يأكل برضا وانشراح . ونحن نموت من الجوع .

قال الصول درويش وهو يتوعده : سيكون لنا حساب معه .

وقبل أن يكمل الصول عبارته ، جاء العسكري رزق بسلة كبيرة امتلأت بالبيض من كل شكل ولون .

وقبل أن ندب أصابعنا في عينيه المحملقتين ، قال يقطع علينا الطريق للومه : اضطررت للأكل معهم . وإلا كان في الرفض عار لا يُمحى .

خبط مفيد كتفه : إلعب غيرها . . يا نمس .

قال يدفع عنه اتهاماً أكيداً : أنتم الذين أرسلتمونني . وكل ما حصلت عليه نصف دجاجة .

شهق أبو طويلة كالمعذب : نصف دجاجة . . يا حفيظ .

ولم يكن هناك وقت للحديث أكثر من هذا ، فقد امتدت أيدينا لتضع البيض في الإناء الذي تقطعت مياهه من الغليان .

كما لم يكن الوقت مناسباً لوجع الدماغ ، وخلع رزق من مهمته التي تعود عليها . إلا أنه حين خلا بالصول درويش دس في يده قطعتين من اللحم : كبده و قنصة .

رأينا كل شيء ، فقد كانت رشوة مفضوحة . وقبل أن نغلق قطع ألسنتنا برشوة جماعية : الشاي كشري ، على حسابي لكم جميعاً .

خرج مفيد عن صمته ، وهو الذي رأى المأدبة ، ولم يدع إليها ، خبط على كتفه محتجاً : نحن لا نباع ولا نشترى .

كانت أشجار المانجو تبدو محترقة من أثر القصف في حرب لم يمر عليها عام واحد .

وكانت رضا قد اقتربت من نطاق السرية وقد حملت شاه صغيرة ، قربتها من صدرها ، راحت تثغو ، وهي تهدهدها . أومأت لرزق أن يأتي ، ولم نسمع ما نطقت به ، فقد كانت تضع الشال الأزرق على فمها . لكنه حمل الشاه ، وعاد بها إلينا . لقد صعقنا بالموقف ، وتجمدنا للحظات ، ثم انطلقنا جميعاً ، نرفع رزق فوق الأعناق ونهتف للأسود ابن الطالبية بطول العمر . حتى أنه قد خجل ، وراح يتمتم لنفسه بكلمات مبهمة ، فيما استعد الجميع للوليمة المعجزة .

الأعمـــال بالنيـــات

في فايد ، علمنا المكان بالفلنكات المترامية بلا نظام على جانبي الطريق . محطة القطار في الجانب الشرقي من الطريق الأسفلتي . تعبر الكوبري الخشبي العتيق ، ثم تواجهك أشجار السيسبان التي تدلي شعورها خجلاً في الترعة النحيلة التي لها لون رمادي غريب . إلى الجوار يقبع الكافور ، أشجار عجوزة بعمر الحزن ، كأنها كائنات انقرضت من عصور سحيقة بائدة .

العساكر في كل مكان . اللون الكاكي يسود المحطة والأرصفة ، والأزقة الضيقة ، ويحتل معظم مقاعد القش الواطئة في المقاهي الفقيرة ، التي عجزت عن استيعاب كل هذا الحشد ، فاستعانوا بالجراكن البيضاء بعد أن مالوا ، وملئوا فراغها بقش الأرز .

في المحطة الفقيرة مقعد أو اثنان بلا مساند . وحجرة ناظر المحطة الرثة ، لها باب خشبي صغير ، مغلق في معظم الأحيان . وفي ظل العواميد ، والسيما فورات ، بعض دجاج ينبش التراب ، واليوم جمعة .

فكر عبد العظيم أن يحتسي شاياً ، وأن يقطع الوقت بالنظر في وجوه البنات المتفجرة بالصحة والسعادة الخفية التي لا يوجد لها أي سبب ، سوى الأمل في أيام قادمة أقل مسغبة .

فتيات بملابس محتشمة ، وطوق الصدر مفتوح بحساب حيث الدانتيلا العريض تسرب قليلاً من البهجة .

يصر على أن يمتص تفل الشاي ، ونحن نصفه بأنه شخص دون ، فيرفع يده معترضاً : حتى الثمالة الأخيرة .

البنات يسرن في دلال ، والعساكر يكتمون مشاعرهم ، ويكتفون بنظرات حذرة ، ويتهافتون على البنت (محاسن) بائعة التين الشوكي ، وهي تنقي الحبة وراء الحبة ، فتقشرها في دربة وصنعة . وترفع يدها باللحم اللذيذ الممتلئ بالبذور والعصير الحلو ، وتغني : " خمسة بربع جنيه " .

في اتجاههن إلى السوق تسير البنات ، وأجسادهن التي تخفي رغبات دفينة ، تكتفي بإيماءات سرية ، وترفض عيونهن – في ارتياب مرير – أي محاولة للتسليم بالأمر الواقع . ينزلق عبد العظيم بمقعده العتيق ، وعينه التي تندب فيها رصاصة – اليمنى على الأرجح – ترسل نحو السرب المحظور الاقتراب منه وميضاً قاتلاً .

صلاة الجمعة على الأبواب ، لأن الحصر المطوية في أركان الجامع ، يتم فردها في نظام بديع ، والعساكر لن يقلعوا بياداتهم حتى يعلو صوت المؤذن : قد قامت الصلاة .

لذلك فقد أفتى الزرقاوي أن العساكر مهما فعلوا من خير فهم في الدرك الأسفل من النار .

سمع عبد العظيم الفتوى ، فأشاح بيده معترضاً : ألسنا في نار الجيش ، وهي – والعياذ بالله – مثل نار جهنم ؟

كاد خيري الزرقاوي يطبق عليه بيديه فيخنقه ، إلا أن جحوظ عينيه قبل أن يقدم على مشروع الخنق ، جعله يتراجع وهو يؤكد أن أفراد الكتيبة كلهم سيكونون من حشو النار بينما الفرقة الناجية وحدها ستكون على الأرائك .

لم يعترض عبد العظيم هذه المرة على كلام الزرقاوي ، وأخذتها من قصيرها ، وفرد طوله ، وقال له وهو يتمطى : الأعمال بالنيات !

وجدناها . الحلقة المفقودة التي طالما بحثنا عنها في ليل الملاجئ ، وعتمة الخدمة الشاقة ، حتى أنني أكملت العبارة في خشوع لا أعرف كيف استولى عليّ : ولكل امرئ ما نوى .

في هذه اللحظة بالضبط ، وقبل أن أضع النقطة الأخيرة على نهاية جملتي ، كهسيس صمت في زحمة المكان ، جرى ما يمكن اعتباره أمراً من أمور (الخانكة) ، وإليكم التفصيل :

كان عبد العظيم يهم بمغادرة المقهى ، وصوت الواعظ يلعلع في مكبر الصوت ، والبنت محاسن هناك لا تكف عن الشخط والنطر في عساكر أعينهم زائغة .

فجأة عبرت أمامنا بنت صغيرة تسوق قطيعاً من الجاموس ، وفي نهاية ذلك القطيع كان الأب يهش الجاموسات النافرات ، والمتلكئات . عفار يعلو في المكان كله ، فيطوقنا ويزيد إحساسنا بالاختناق .

رأيناه يفز من مجلسه ، ويمضي في أثر القطيع ، وعلى بعد خطوات قليلة من الأب الذي راح يحلق يمنة ويسرة على جاموسة شاردة ، راحت تقتلع عيدان برسيم من سيارة ركنها سائقها بجوار الطوار الأيمن .

تتبعناه بنظرنا ونحن نتعجب . هذا عبد العظيم الفلاح ابن الفلاح لماذا تركنا وذهب وراء القطيع ؟

لم تطل دهشتنا ، فقد أنزل الأب جاموسه ليستحم في الترعة ، زغرت البنت للعسكري عبد العظيم . وهو يقترب من ثروتها ، ويتأملها في وله عجيب .

وسرعان ما خلع سترته ، وفك أربطة البيادة الثقيلة ، وبنطلونه الميري ، وفانلته الداخلية ، ونط في الترعة ، وهو يغطس ، ويقب ، ثم يقترب من جاموسة عظيمة اللحم والشحم ، فيطبع على رقبتها المشدودة قبلة حرنا في وصفها .

وقف خيري الزرقاوي ، وقد نفرت عروقه ، وهو يشير للعسكري الذي عاد إلى طفولته مرحاً ، يغطس غطسات عجيبة ، نعتقد مع طول غيابه أنه قد مات وفطس ، قال بصوت متحشرج : الندل . . الفاسق .

قال له رزق وكان صامتاً طول الوقت : إنك الجاهل هذا شيء لا تعرفه .

وصحنا في وجهه معترضين : ثم إنّ الأعمال بالنيات !

الـدفـرســـوار

الدفرسوار اسم له رنين عجيب . الحضن الذي تلقاني فور الخروج من فرقة الأخصائي . طوال الطريق إلى موقع قيادة الكتيبة تقابلك دشم مهدمة ، دبابات معطوبة ، إطارات سيارات عسكرية ، حفر ردمتها رياح أشهر منصرمة ، ثم كمية لا يستهان بها من سجائر العسكر اليهود ، فقد مروا من هنا . انحنيت لألتقط علبة سجائر دبغتها الشمس ، وحولت زهزهة الغلاف إلى انطفاء منكسر ، وقرأت بالانجليزية : " TIME " . قلت في سري مترجماً : الوقت أو الزمن ، ثم قلبت العلبة لأتأمل الأحرف العبرية المربعة ، وأوجعني قلبي حين رأيت منزل قد تهدم تماماً بالقرب من قرية " أبو عطوة " .

الدفرسوار ، حيث مسطح الأزرق الساطع مع مساحات الخضرة الحنونة ، وما يلبث الأصفر العنيد أن يواجهك ، بكل جبروته وغطرسته .

في الدفرسوار ، سيمكنك أن تصبح جندياً كاملاً ، ولن تزحف رمال الموقع في السادسة صباحاً ، سيكون من حقك أن تتفنن في إيجاد سرير لك مع طاقمك .

وستعثر على من يساعدك ، ويضع بين يديك أول كوب شاي مصنوع بمزاج ، فإن كنت تدخن ، فلك الحق في سيجارة وثانية ، أما الثالثة فبحسابها . فكل شيء هنا يسير في دقة ، بلا عواطف زائدة ، وأيضاً بلا قسوة متعمدة .

هذه قلوب ألانتها الحرب ، ورققتها الدماء الذكية التي تشربتها رمال لا تظمأ . كنت طيلة عمري أحب الأزرق بدرجاته، ثم يأتي الأخضر على استحياء ، وأكره الأسود بلا حدود : كنذير موت ، ثوب حداد ، ظلام دامس .

بقية الألوان كانت محايدة . الأصفر لا يمثل لدي أي شيء ، مثله مثل البني والرمادي والرصاصي . لكن أيام الخدمة الأولى جعلتني أضع الأصفر في مرتبة العدو . فيه قسوة لا تحد ، وغطرسة لا يمكن تصورها . الصحراء الخرساء لا يتكيف معها إلا السحالي والحرباء ، والبدو .

لا أشعر بعنصرية من أي نوع ، لكنها لعبة الألوان معي . ولقد نسيت أن أقول بكل ثقة أن الأحمر كان يثير حنقي ، فهو الدم المسكوب ، وهو أيضاً عرف الديك الرومي ، وأوداجه التي تنتفخ .بمجرد أن تصدر له صفيراً من فمك ، فينفش ريشه كمروحة ، وتسمعها مدوية : كركر . . كركر . . كركر .

في الدفرسوار ، أشجار مانجو عملاقة ، اللحاء غليظ ، وعليه أسماء عساكر ماتوا ، وآخرين جرحوا ، ومعظم أفراد السرية لهم أسماء بديلة رصعوا بها الجذوع . أما أشجار التوت اللذيذ فهي تكتظ بالثمار السوداء ، والحمراء في بذخ لا يمكن وصفه .

آه . . في هذه التبة الصغيرة ، التبة التي تبعد مائتي متراً عن ملجأ طاقمي تم طحن عظام جماعة مشاة ، ودفنت الأشلاء في حفرة عميقة . ونبتت شجرة نبق لم يجرؤ جندي مهما بلغ جنونه أن يأكل منها . كانت حبات النبق تميل إلى الحمرة ، وتسقط بمجرد النضوج ، فيمر عليها العساكر ، يقرأون الفاتحة ، وهم يبتعدون عنها بمسافة كافية .

في أول ليلة من الخدمة سمعت الهمهمات المكتومة ، والصرخات المذبوحة ، كان ثمة ارتطام لأصوات كأنها قادمة من زمن مضى ، والكلمات قد طمسها البلى .

تداخلت في ذاتي ، أحكمت إغلاق الزُنط حول أذني ، وأمسكت بسلاحي الآلي . تسرب إلى نفسي شك قاتل في أنني أحلم ، وأنني لم أمر بطوابير الاصطفاف اليومي . لكن السماء كانت صافية ، والنجوم ترسل أشعتها بتحد لا يوصف . قرصت يدي من العضد . لم أشعر بأي وجع . دعكت رقبتي بقسوة فتوقفت مع الألم الذي سرى إلى بدني . أسقط في يدي : كنت في الدفرسوار .

قال لنا أقدم أومباشى في السرية : لا تفكروا طويلاً في الراحلين . كل منهم كان مثلنا . له أحزان وأحلام ، أوجاع ومباهج . فلماذا اختارت الشظية يسري وتركتني ؟

تهدجت أنفاسي ، قال بصوت واثق لا أثر فيه للمماحكة : العمر واحد ، والرب واحد .

قلت له بعد يومين من الخدمة : إن أصواتهم تأتي بالليل ، ويلفني الأنين ، ويتلفني الشعور بالعجز .

هز رأسه غير مقتنع بكلامي : المحارب مثلي لا يسمع مثل هذه الأصوات !

وفي ليلة حالكة السواد ضرب الوتد الحديدي قصبة رجله ، فعرج وهو يشير باتهام أكيد : الولد مرسي ابن الكلب . مات ويريد أن يخوفني .

ضمد جرحه ، ورأيت الدم يتسرب من نسيج الشاش في ظلمة الملجأ ، قلت له : أصدقتني ؟!

زغر لي في تحد : عليك بالخرس .

إنها الدفرسوار ، تبدو بيوتها الطينية القليلة كأنها من عهود سحيقة ، لها شكل المكعبات المتساندة ذات الفتحات شحيحة الضوء . كل البيوت تبيع الجاز والسجائر ، ماكينات الحلاقة ، الحلاوة الطحينية ، مثلثات الجبن المطبوخ . لا شيء بالأجل فالخبرة قد علمت الأهالي أن رحيل العساكر أو بقائهن رهين سطر واحد في أمر قتال ، أو إشارة لاسلكية يتم رصدها في جزء من الثانية ، الوحيد الذي كان يبيع بالأجل هو عم عبد السلام . لقد رأى عسر العساكر ، وقرر منذ رأى الشهداء والجرحى أن تكون زكاة تجارته هي تلك المبالغ التي لا يمكنه استردادها . بالقرب من بيته ، الذي هو دكانه كان عساكر من الدفرسوار كلها . يعرفهم بالاسم ، أو الشكل ، أو " الأمارة " .

الدفرسوار بطيخها شديد الحلاوة ، وفي مرات الجمع ، تتكدس الحبات الضخمة على هيئة أهرام ، منظمة ، تصبغها الخضرة ، ونقرشة الرمال التي تحولت إلى بطعة صفراء دليل النقاوة .

في الدفرسوار ، دفن كل عسكري مؤهله في أقرب حفرة ، وعاش ببدائية الإنسان الأول . استغنى الجميع عن الملاعق الألومنيوم ، وعدنا لحفن الأرز المطهي بالأصابع المضمومة . واستحم أغلبنا في العراء ، مع ساتر لا يحجب شيئاً صنعه ضلع الهايك .

في الدفرسوار كنا نتتبع طيور النورس ، وهي تصدر صوتاً حزيناً ، كأنه نواح متقطع ، ثم يحط بعضها على شجرة النبق ، لتمسح مناقيرها في أوراقها ، وتواصل الطيران بهيكل مائل ، ونظرة مليئة بالشجن ، في اتجاه دائم نحو الشمال ، حيث الأزرق الفسيح .

سـرابيـــــوم

بمشاعر غامضة ركبت السيارة " الزل " ، وإلى جواري فريد الزواوي ، في المقعد الخلفي ، ومعه رزق ، الصمت يلفنا في طريقنا إلى السرية الطبية بسرابيوم .

يبدو أن الاسم فرعوني ، ولما كانت الظهيرة رحت أتأمل الملامح البائسة ، والوجوه الممصوصة لفلاحين يعملون في الهجير ، أو يجلسون بكسل معتاد على الجسور ..

يزوم محرك السيارة ، فترفرف أرواحنا ، دون أن يرفع فلاح واحد رأسه بالنظر أو التحية . حركة السيارات على المدقات ليل نهار ، وأرتال المجنزرات أفقدت الناس فضولهم .

خلق طيبون ، بنفس الجلاليب الواسعة ، وطاقية الشعر من وبر الخروف . فيما يبدو أن المعارك كانت محتدمة في هذا القطاع ، إذ أن فناطيس البترول بدت محترقة ، إضافة إلى خزانات المياه التي تداعت بعد أن دُكت قوائمها .

إلى سرابيوم ، ورزق يكتم بيسراه سريان الدم ، والجرح المفتوح يختفي وراء أربطة مزقتها أيدي عجلى ، وعينا الزواوي شاخصة إلى البعيد .

همس في أذني : " نفسي في عنب بناتي " !

تظاهرت بأن صوت المحرك قد بدد كلامه في الضجيج ، إلا أنه لكزني ، وأعادها بعنف . والتقط رزق العبارة : " عنب بناتي " ؟

كان يقلب اللفظين على وجهيهما ، وتكاد الدهشة تطفر من عينين متعبتين : حاضر .

بالتأكيد ، أغارت طائرات العدو على طرق النقل التي كانت تسير عليها قوافل الإمداد ؛ فيها كل العربات المحترقة لم تزل في المنحنيات . والعرق الذي يتفصد على الجبهة ، والوجنتين ، وانحناءات العنق يعيدنا إلى اللحظة . وقع فريد الزواوي على قاعدة المدفع ، ومال المسند ، في لمح البصر رأينا الدم غزيراً . تنبه كل من في الموقع إلى خطورة الجرح، وسرعان ما أعد الصول أورنيك عيادة ، وقعه على الفور رئيس العمليات ، وتطوع رزق للقيام بالمأمورية معي .

عند مدخل القرية أبطأت السيارة ، ولمحنا عربة فاكهة على إحدى النواصي ، وقد أسندها صاحبها على جدار متهدم . زم الزواوي شفتيه ، وأشار بيده إلى الصناديق المرصوصة . قلت أطمأنه : في العودة .

كشف الأربطة عن الجرح العميق ، فأعادها رزق بغضب : أمجنون أنت ! !

رد الزواوي ، أنه يعرف أن الإصابة خطرة ، وقد يروح فيها ، لذلك استعطفنا أن نشتري العنب ، وشدد على أن يكون العنب بناتي !

خبطت بيدي على سقف الكابينة ، أوقف مختار السائق السيارة متسائلاً : أيه ؟ ؟

قلت : دقيقة واحدة . قفزت إلى الأرض المتربة ، ذهبت إلى بائع الفاكهة . قبل أن أسأله عن الثمن ، راح ينفض العناقيد بمشنة من الخوص ، والذباب الذي كان راقداً في هدوء ، هاج ولف ، ودار ، ثم حط من جديد على الصناديق .

رحت أتحسس ما معي من نقود : نصف كيلو .

سمعني رزق ، فقذف لي قطعة نقود فضية ، سمعت رنينها ، وهي ترتطم بالأرض : اشتر كيلو .

أكمل الزواوي : عنب بناتي .

من عمق سحيق ، رأيت تلك الحادثة بتفاصيلها الدقيقة ، كنت طفلاً أرتعش من الحمى ، وأبكي من الخوف ، أقول لأمي : أريد عنباً .

إنها تداعيات الموقف الصعب . لكن المدق الجيري ، وخلفه الطريق الزجزاج أعادني إلى سرابيوم . خفت أن أكون قد تأخرت ، عدوت إلى أقرب زير ، وغسلت العناقيد ، ثم مددت يدي لرزق الذي تناول القرطاس المبلول . صعدت بصعوبة لأن الشمس كانت في عيني ، تبخ نارها . ولم يكن معي أي منديل فمسحت عرقي الغزير في أكمام السترة .

أحسست أن جسده يتصلب ، ورغم أنينه الخافت ، فقد امتدت يده ، تتناول حبات العنب .

زفر ، والعربة تتخبط في مطبات الطريق ، وكانت الحفر مملوءة بالأعشاب الجافة الصفراء . ونحن نواصل رحلتنا القسرية إلى السرية الطبية التي لاحت لنا على بعد ، مهدمة هي الأخرى ، وبين أشجار وارفة . عرفناها بالعلم الأبيض الذي يرفرف مع حركة الهواء ، تطويه الريح فيبدو الهلال قطعاً حمراء صغيرة من دماء الجرحى والشهداء .

نزلنا ونحن نضغط الأربطة بقوة ، وقابلنا طبيب شاب في حجرة الاستقبال ، أخذ الأورنيك ، وسألنا عن فصيلة دم الزواوي الذي يبدو أن الغيبوبة أخذته للحظة ، فقد أجاب على الطبيب بنفاذ صبر : عـ . . نـ . . ب . . بناتي .

أسقط في يدنا ، واضطررنا إلى حمله ، ووضعه على النقالة ذات العجل . دفن المصاب وجهه في ملاءة بيضاء وضعوها على جسده ، وطلب من رزق أن يحتفظ بقرطاس العنب .

كانت رائحة البنج النفاذة تصل إلى أنوفنا ، وتدفعنا إلى القيء ، قال الطبيب بهدوء بعد أن كشف على الزواوي :

عملية بسيطة . ابقوا في الخارج . خمسة عشر غرزة تقريباً .

أخذنا مختار إلى " غرزة " بجوار ترعة تسبح فيها أسراب البط ، أخرج من عبه حق المعسل ، ودفعه للعجوز ، الذي جاء له بثلاثة أكواب من الشاي المعتبر ، ونرجيلة طرفها من الغاب ، وراح يحرك الفحم بالماشة . شاركنا الرجل جلستنا : خير . . يا شباب .

قال مختار بحزن حاول إخفاؤه : زميلنا الزواوي . . جرحه صعب .

خبط بيده على المنضد الخوص : ياه . . السرية الطبية شافت جرحى وشهداء بالآلاف لا.

ضحك ، كأنه يطرد خاطراً شريراً : سرابيوم يا أولاد أكلت الجعضيض !

هبت ذرات الرمال ، وراحت الشمس تغوص رويداً رويداً باتجاه الغرب ، حدقت في الوجه العجوز ، وتجاعيد السنين، والغضون العميقة .

سألته : ماذا تعني سرابيوم ؟

تأملني لحظات قبل أن يربت على كتفي : يا ولدي نحن فراعنة .

جائز فيه عرق عربي ، وعرق نصراني ، وعرق عثمانلي . لكن البذرة فرعوني .
اتسعت ضحكته وهو يفكك الكلمة : سراب . . يوم .
شهق وهو يغمز لي ، وللأصحاب : سراب العمر كله . لكنهم يحرّفون !

صيـــد العصـــــاري

يفتح العساكر أعينهم كل صباح على ذؤوبات الأشجار تخفي مساحات واسعة من الأزرق الفسيح ، شقشقة العصافير ، وهي تغزل من الضوء لحناً فرحاً . صوت الشيخ محمد رفعت يأتي واهناً من داخل ملجأ قادة السرية . ننصت لتغريد كناري وحيد يمضي باتجاه الغرب ، أما الشرق الذي يحفه طريق المعاهدة الأسفلتي فهناك القناة ذات الزرقة القانية ، يتدرج اللون كلما أوغلت في العمق .

يتنهد العساكر بحرارة مع طلوع صبح جديد ، والكل يقول في سره : " يا فتاح يا عليم " . لا أحد يمكنه أن يكمل الجملة الأثيرة : "يا رزاق يا كريم " فلا رزق في الجيش ولا يحزنون .

وطأة الحر الخانق لم تبدأ بعد ، كل شيء يكون في صفاء عبر الساعات الأولى لكأن الكون يتشكل من جديد . حتى البيادات الثقيلة ما زالت تحت أضلع الصاج ، وبداخلها الجوارب التي أثقلها الرمل الناعم خلال يوم فات .

في الصعود إلى نقطة مراقبة السرية تبدو السيارات صغيرة كعلب كبريت تتحرك ببطء ، والدخان يصعد من الشكمانات الصفيحية .

ما أبهج أن يغسل الإنسان وجهه بماء جار . هذا ما دار في ذهن العسكري ياسين ، ونفذه على الفور .

رأيته بنفسي يندفع إلى التبة ، ويتدحرج بصعوبة هابطاً نحو الأسفلت . لم تعترضه سوى أشجار قزمية ، وحشائش برية نبتت كيفما اتفق ، لكنه تفادى كل العوائق . قطع الطريق الأسفلتي ، وانحدر إلى صفحة القناة . كنت أرقبه ، وقد صار نقطة من الكاكي تتحرك يمنة ويسرة ثم تستقر على الشاطئ .

كأني به يستحضر وجوه كل من غابوا ، على البعد ، هناك ، وطواهم النسيان . ثمة طيور بحرية تسقط على صفحة الماء ، وتلونها بالأبيض .

أقعى بالقرب من المياه التي طالما شاهدها على البعد . هي له الآن . يمكنه أن يغسل وجهه بفيضه الباذخ .

لكن ياسين غمر رأسه ، وراح ينفضه باستمتاع غريب .أخرجت منديلي الكاكي ولوّحت به ، لم يرني . جاء حامد ولوح له بذراعيه ، التفت صدفة فرأى تلويحنا . رفع ذراعه ، ثم حفن بكفيه بعض الماء وراح يرشه باتجاهنا . كان يفصلنا حوالي كيلو مترين . لكن طراوة الماء ، ونداوة الصباح أشعرتنا بالبلل .

حين عاد العسكري ياسين مهرولاً ، كنا قد ارتدينا الزي كاملاً ، وحلقنا ذقوننا ، وكان شعره المبلل يشعرنا بالرغبة في أن نغامر مثله ، ونفعل فعلته .

في فترة الراحة بعد تمام طابور السرية اتفقنا أن نصطاد سمكاً من القناة بأي وسيلة . نجح رزق في أن يحصل على تصريح ثمان ساعات لشراء بطارية سائلة لسيارة الحملة .

عاد ، وقد أخفى عدة قصبات من الغاب ، وفي كيس داخل السترة كانت قطع الرصاص ، والهلب المسنون ، وخيوط الغزل المتينة .

كان لا بد أن نخفي الأمر عن الصول درويش ، ففور راحة ما بعد الغذاء أنزلنا ضلع الهايك المموه ، وبدأنا في إعداد أكثر من سنارة .
كل مرة نثبت الرصاص ينزلق نحو الهلب ، جاء الزواوي وكان جرحه ما يزال طرياً لم يندمل ، عض بضروسه قطعة الرصاص في مكانها المناسب فأمسكت بالغزل .
أخفينا جسم الجريمة بمحاذاة أضلع الصاج ، وأعدنا كشف فم الملجأ ، وكان التجويف لا يسعه فرحنا الهائل بيوم الصيد.
اتفقنا أن نشوي الأسماك التي نصطادها ، ونجعلها " عزومة " لا تُنسى ، ورحنا نحلم بالبوري والقاروص والبياض .
نستر فرحتنا بالصمت على غير العادة ، ونقوم كل لحظة لننشر ثياب غسلناها ، وعلقناها على سفح التبة القريب ، ملأت رئتي بهواء عليل شعرت أنه محمل بيود القناة ، كانت ثمة طائرة ورقية تترنح خلفنا ، في الجزء المدني الذي لم يعد أهله من التهجير بعد . تأملنا الشمس وهي تنحدر في لطف وهدوء لا طاقة لنا به .
حين لامس عامود التنشين وتد حفرة الذخيرة ، تسللنا واحد واحداً ، بكل حذر ، وعانينا من الدحرجة اللعينة التي تركنا لها أجسادنا ، حتى لا نصاب بسوء .
في أسفل التبة ، تلمسنا الجروح والرضوض ، وتسلخات المرفقين ، لم تكن هناك خسائر يؤبه لها .
صرنا في مواجهة الأزرق الجميل ، ماء له رونق بهي ، كأنه يشهق ممتناً بحضورنا . أخذنا وضع القرفصاء ، وضعنا " الطُعم " ، ثم دلينا السنارات .
هب هواء منعش غسل أحزاننا ، فسرت في أبداننا سعادة غامرة ، وطفحت وجوهنا بالبشر . كانت المياه فاتنة ، تمس أرواحنا بنغمات ساحرة .
اصطاد ياسين ثلاث سمكات ، وحامد أبو طويلة سمكتين ، بصعوبة بالغة اصطدت سمكة لا بأس بها ، ورحت أتحسس الزعانف ، نجح رزق في اصطياد سبع سمكات ، فقد كان يخمش جسد السمكة بلهب كبيراً اصطفاه لنفسه . قلنا " وجبة " لا بأس بها . لكن الرزق يحب الخفية . وأردنا المزيد .
في لحظة صادمة ، هبط جنود المشاة بالسرية الثالثة ، أشاروا لنا بالابتعاد . نفذنا الأمر باحتجاج مكتوم .
قذف صول محتقن الوجه بإصبعي ديناميت ، سمعنا الانفجار المكتوم ، وأصاب رشاش الماء وجوهنا ، ورأينا السمك يطفو ممزقاً على سطح الماء الذي اصطبغ بالأحمر .
بدأوا في جمع السمك المغدور ، وانصرفوا بنفس السرعة المباغتة . ألجمتنا المفاجأة . لم ينبس أحدنا بحرف .
قمنا من المكان نجر أرجلنا ، وقد شعرنا بالأسى يلفنا حين وصلنا إلى أرض السرية ، لم تكن معنا سنارات ، ولا حتى السمك الذي اصطدناه . ولما عضنا الجوع ، أخرجنا الجراية نأكلها بغل لا يمكن وصفه ، بدون أي غموس ! !

السيرة الذاتية للكاتب سمير الفيل

- **سمير الفيل**
- الاسم بالكامل :سمير مصطفى توفيق الفيل .

- **المؤهلات :**
دبلوم معلمين 1971،
ليسانس آداب وتربية 1988.
- يعمل حاليا ناظرا لمدرسة الإمام محمد عبده بدمياط.

- **أصدر الأعمال السردية الآتية:**
- رجال وشظايا، "رواية " ،الهيئة العامة للكتاب ،1990.
- خوذة ونورس وحيد، "قصة قصيرة " ،دار سما ،2001.
- أرجوحة "قصة قصيرة "،مركز الحضارة العربية ،2001.
- كيف يحارب الجندى بلا خوذة ؟، "قصة قصيرة "،المجلس الأعلى للثقافة ،2001.
- ظل الحجرة "رواية "، مركز الحضارة العربية ،2001.

- **قدم أعمالا أخرى منها:**
* مواجهات ، مديرية ثقافة دمياط ، مارس 2000 .
* تقاطعات ثقافية ، مديرية الثقافة بدمياط ، مارس 2001.
* "انكسارات القلب الأخضر ،قصص الأديب السعودى الراحل عبد العزيز مشرى " ،سلسلة آفاق عربية ،مايو 2003.
*"الحكيم وحماره "، سلسلة عين صقر ، هيئة قصور الثقافة ، 1999 .

- **أصدر خمسة دواوين شعرية هى :**
*الخيول ،مديرية الثقافة بدمياط ،سبتمبر 1982 .
* ندهة من ريحة زمان ،الهيئة العامة للكتاب ،1991 .

*ريحة الحنة ،مديرية الثقافة بدمياط ،1998 .
* نتهجى الوطن فى النور ،هيئة قصور الثقافة ،إبريل 2000 .
*سجادة الروح ،إ قليم شرق الدلتا الثقافى ،مايو 2000 .

- **له قيد النشر الأعمال التالية :**
*" شمال يمين " ، مجموعة قصصية .
*" وميض تلك الجبهة " ، رواية .
*" الولد فلفل "، مجموعة قصصية .

- فازت رواية "رجال وشظايا "بجائزة القوات المسلحة كأفضل ثانى رواية عن حرب أكتوبر 1997 ،كما حصلت نفس الرواية على جائزة أبها الثقافية 1992.
- فازت قصته" فى البدء كانت طيبة "بأول جائزة مصرية عن أدب الحرب "مجلة صباح الخير ،"1974 ،وحصلت قــصة
" النحيب " على الجائزة الأولى لمسابقة مجلة النصر 1985.
كما حصلت قصة "قرنفلة للرحيل" على نفس المركز1987.
- كرمته الدولة فى العيد الأول للفن والثقافة 1979،كما كرمه مؤتمر أدباء مصر فى الأقاليم الدورة 12بالأسكندرية 1997 .
- حصل على منحة تفرغ من وزارة الثقافة المصرية (يوليو 2001) قطعها فور إنجاز روايته الثالثة " وميض تلك الجبهة ".
- حاز على المركز الأول فى مهرجان مسرحة القصة القصيرة "إقليم شرق الدلتا الثقافى " عن عرض "إطار الليل "نوفمبر 1999.
- حصلت مسرحيته "حكاية من هناك " على الجائزة الأولى للمسرح ،مسابقة منظمة الشباب 1974 .
- قدم للإذاعة المصرية " البرنامج العام عملين إذاعيين هما : "وجوه من أ كتوبر"1991 ،" أوراق أكتوبرية"1996.
- عمل محررا ثقافيا فى جريد ة " اليوم "السعودية فى الفترة من 1991 إلى 1995 ،ثم مراسلا لنفس الجريدة من 1996 إلى 2000.
- شغل موقع أمين عام مؤتمر دمياط الأدبى لثلاث دورات ،ثم نفس الموقع لمؤتمر إقليم شرق الدلتا الثقافى 2003 .
- قدم أغانى وأشعار أكثر من 15 مسرحية فى قصور الثقافة ،وفاز عن أعماله تلك بعدة جوائز متقدمة .
- اهتم بفكرة إجراء حوارات مع المثقفين والأدباء الغرب ،والمستشرقين وأنجز فى ذلك ما يقترب من حدود ستين لقاء تم نشر أغلبه فـــــــــى " اليـــوم "، "الجسرة "، "الثقافة الجديدة" ،وغيرها .
- أعد عنه ملف فى مجلة" أوراق "التى تصدر من إقليم شرق الدلتا ،تضمن دراسات عن أدبه ،كما أصدر عنه الناقد جمال سعد كتاب "طاقة اللغة وتشكيل المعنى" .

- عضو اتحاد كتاب مصر ،وعضو نادى القصة .
- رئيس نادى الأدب بدمياط 2003.
- أمين عام مساعد مؤتمر أدباء مصر بالأقاليم 2003.

- **معلومات الإتصال:**

- تليفون المنزل : 057 /341640
- تليفون العـــمل: 057/322549
- البريد الألكترونى :samir_feel@yahoo.com
- العنوان : دمياط ،ميدان سرور ،مدرسة محمد عبده الابتدائية المشتركة ،سمير الفيل .